العرب في
صحراء ليبية

الريحاوي

BOBST LIBRARY
3 1142 01270 6449

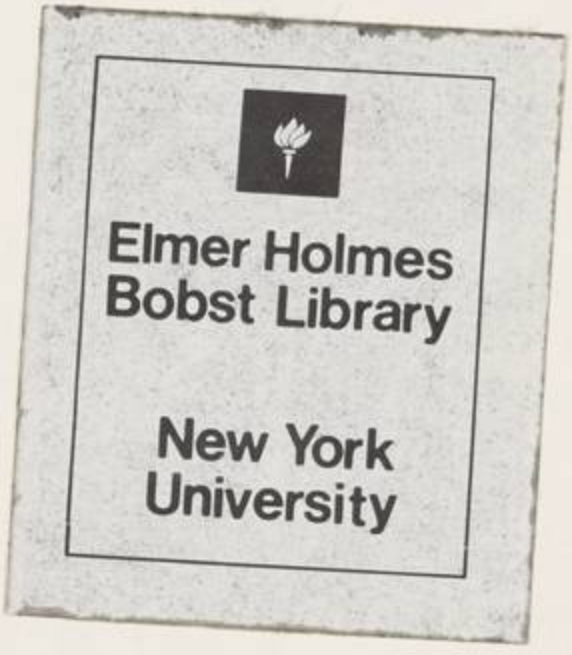

Provided by the Library of Congress
Public Law 480 Program

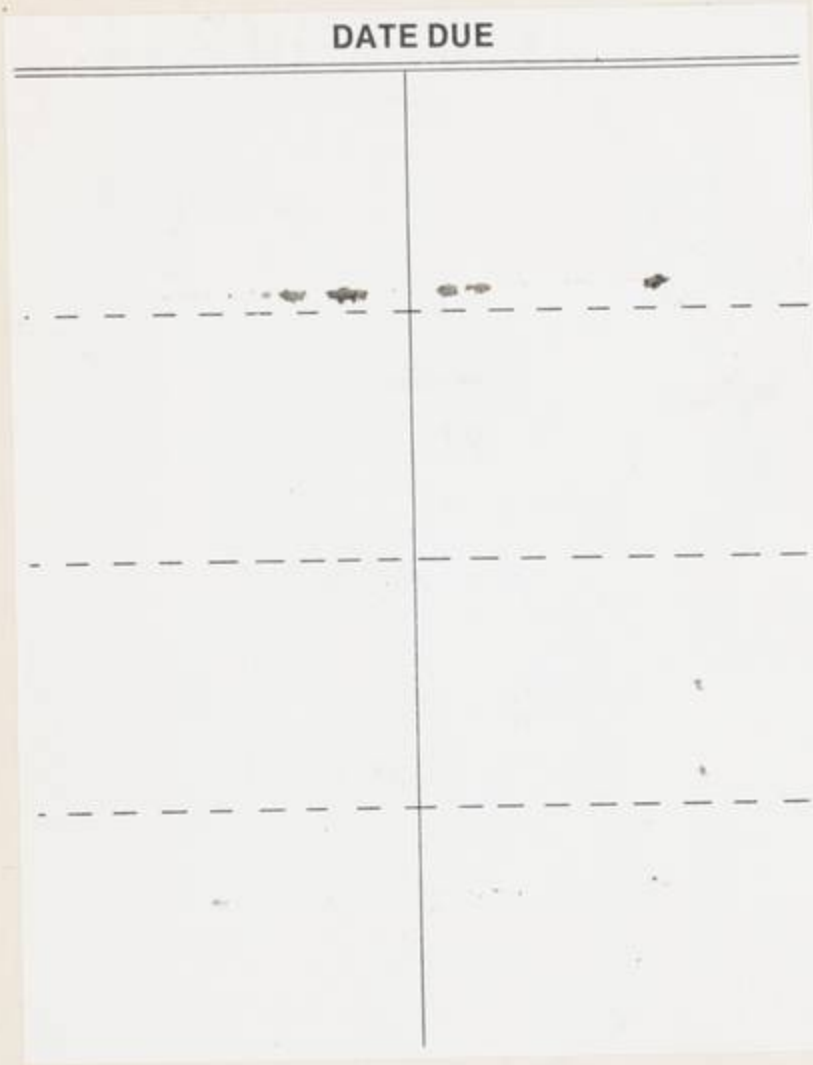

78-960327

وزارة الإعلام
مديرية الثقافة العامة

محمود الرمياوي

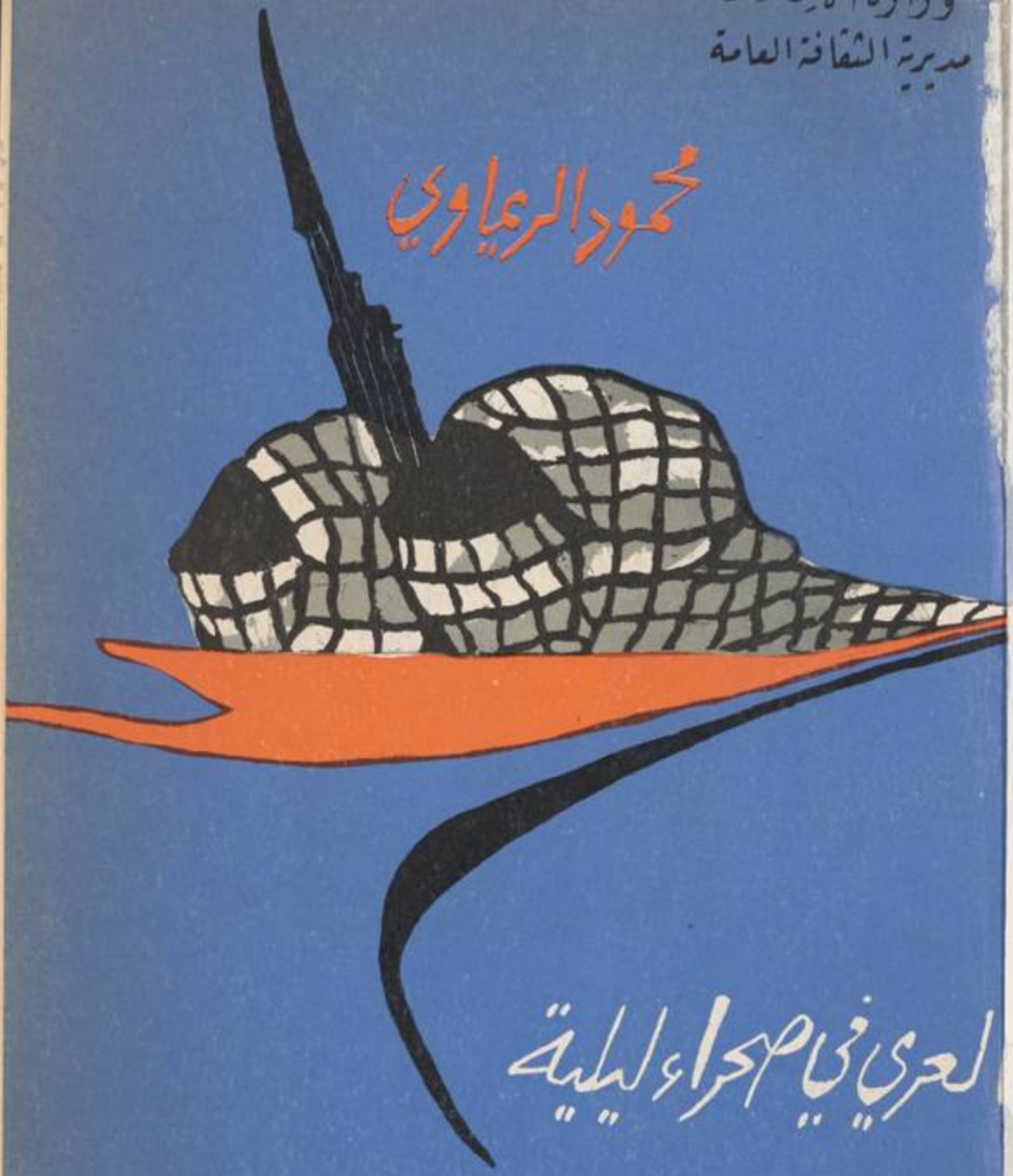

# لعري في صحراء ليلية

سلسلة القصة والمسرحية
١١

وزارة الاعلام
مديرية الثقافة العامة

سلسلة القصة والمسرحية
١١

al- Rimāwī, Maḥmūd

/al-ʿUry fī ṣaḥrāʾ laylīyah/

# العري في صحراء ليلية

محمود الريماوي

PJ
7860
.I56
U7
1972
c. 1

# أبناء الآخرين

## ١ ـ طفل غزير الاحلام

عندما اندس في فراشه الصغير ، ظلت الجمل المتوترة تقرع اذنيه ، ولم يكن النوم بالنسبة له مشكلة مستعصية ، فهو سرعان ما يستغرق فيه ، وينفصل عن الوجوه التي تحيطه ولا تمنحه ولو كسرة من طمأنينة ، لكن الصمت الذي يطوقه كان يحتمل أكثر من تأويل ، ولم يجد صعوبة في مقارنته بتلك الليلة التي سافرت فيها أمه ، ولم تعد .

شعر ان الفراش تحت جسده يابس ، وكأنه ينام على أرض عارية . أما الغطاء فلم تكن ثمة حاجة ماسة له ، ما دامت تلك الليلة شديدة القيظ . أراد أن يتحرر من الغطاء ، بيد انه خشي أن ترتطم عيناه بوجه أبيه ، الحافل بترقب قلق ، فسحب الغطاء حتى أخفى وجهه . بغتة ، نهضت أمام وجهه حكايا جدته عن الغولة والجنيات ، فتعرف الى الحقد . انساب على خديه خطان من سائل ساخن ، استطاع أحدهما أن يصل شفته العليا ، فأدرك طعم الملح .

أما ان الفراش يابس ، والغطاء ثقيل ، فان هذا لم يعد من الاهمية بمكان . ذلك ان الغابة لا أحد ينـــام فيها من البشر . كان محاصـرا بالوحدة ، وكانت الدنيا نهاراً بدون شمس .

حاول أن يتذكر من الذي أحضره الى هذا المكان الذي يخشى حتى

أن يتخيله ، فلم يفلح • وفي كل لحظة كان ينتظر وحشا يقفز عن شجرة عالية ، ويقبض عليه من كتفيه لينيمه في بطنه • قال الطفل : سأعود الى البيت وأضرب خالتي بحجر ، ولن أحب أبي بعد هذا اليوم ، وسأبيع جرائد وأشتري ما أريد • أين بيتنا ؟ سأل نفسه ، وندم لانه لم يحفظ الجهات الاربع • أخذ يركض بلا توقف ، وكانت الاشجار تركض معه ، وأصوات مجهولة تطارده • وعندما أنهكه التعب ، كان جدار من الحجارة ينتصب أمامه ، فأسقط في يده • وانبثقت من حنجرته صرخات مذبوحة ، فيما هو يقعي على مقربة من الجدار • وان هي الا لحظة نزقة حتى اقترب منه حيوان أشبه بالكلب ، غير ان رأسه ليس مستطيلا ، ولا ينبح • ومن غير أن يفكر ، كان يمشي معه وكأنه ابن الجيران • ثم خرج الحيوان صوب عراء مجاور ، وعندما اقتربا من مغارة تبدو من الخارج صغيرة ، أخذ الحيوان يخفف من سرعته ، ودعاه بعينيه الى الدخول ، فاستجاب • انساب الحيوان الى الداخل بحركة رياضية مدربة ، وتهيأ الطفل بدوره للدخول •• حنى رأسه ، ودفع بجسمه الصغير ، الا ان رأسه اصطدم بحافة الباب العلوية • وعندها تذكر جدته ، وكان الضبع في الداخل يتمطى بارتياح •

أطلق الطفل صرخة ذعر ، أحدثت ثقوبا دامية في جدار الصمت • هدهدته خالته وساد صمت أخرس ، وكأن الصرخة تحمل نبوءة ما •

**٢ ـ رجل لم ينتظرها**

حدث الرجل نفسه : لم أفرح بهذا البيت بعد •• ومع ذلك لن يصلونا • لم يكن يصدق نفسه ، وكان يرتعد • من ساعة الصبح ، من ساعة ما أشعلوها لم يتناول لقمة واحدة ، واكتفى بالتهام السجائر • شعر بالتشوش فقذف رأسه بين راحتيه ، وتمنى لو كان يملك ترانزستور آخر كي يلاحق الانباء والبيانات • وصلوا المدينة المقدسة ، والجنود يقتلون

في الشوارع مع الاهالى • التصق الرجل في ركن البيت القصي ، وقال لنفسه : متى تتوقف ؟ ولم يتوقف قلبه عن الخفقان • أحس بخجل غامر وقال « والدي هو السبب » • أيقن انه في منتصف الخطر ، وفي هـذا الوقت لا يسأل أحد عن أحد ، فمن أين له بالطعام ؟• ولم يشعر بوطأة الصيام القسري ، بل نبتت على أطراف رأسه آذان جديدة مستيقظة •

بم • بم • بـ ـ وصلونا • بم • بم • بم • ـ أين نهرب ؟• بم ـ سأموت كالفطيسة • بمبم ـ لو اني كشقيقتي في الـكويت • وتتـالت الانفجارات ، وازداد التصاقاً بركن البيت • في الاسبوع الذي سبق عندما أجروها وهمية ، ذهب الى دار السينما • وتفرج كيف تمطر القنابل ، وكيف ينام الموتى بين الخرائب والانقاض ، ولا من يسأل ، وكيف تزلزل البيوت من فوق • وعندما خرج مع الحشر مذهولا ، أصابه الأسف على قروشه التي ذهبت هدرا • وقصد أحد المحلات ليشتري مرآة جديدة ، وعاد الى البيت سليما ، وبالـغ في السهر حتى انتهت الحفلة في تلفزيون الجيران •

لكن هذه لا يمكن أن تكون وهمية ، ولا يمكن أن يكون في كابوس• تصور عمره الذي مضى برمته ، وكأنه وهمي • لماذا لم يحفر خنـدقا ويتمون بالطعام • لكن من كان يتصور انها ستحدث • الكلام لا يجدي ، وأعصابه تتساقط • استعادوا الجبل بعد نصف ساعة ، سيهرولون الينا • تقترب الاصوات وتقتحم آذانه بلا مقدمات • حديث انفجار جد قريب • لو كان مؤمنا لتضرع الى الله على الاقل • وصعدت من قلبه نداءات يائسة : يا الهي ارحمنا • والليل قد انتصف ولم يوقفوها • آه ، الليل مخيف ، في أيام الخير ، فكيف في الحرب ؟• صفارة الخطر تثقب زجاج قلبه • غارة على مدينته ، غارة على مستقبله ، غارة على بيته ، غارة على حياته • يا الهي ارحمنا • لكن كيف سيصل صوته الى الاله ، في خضم هـذه

الاصوات ، الثاقبة لطبلة الاذن ؟ • لو هرب بالامس لنجا • لكن من كان يتصور انها ستحدث • الخروج سيجعله عرضة للقصف المباشر ، الاختباء أفضل • للبيت رب يحميه ، لو يفعلها الاله !• بم بمبم – وكأن صاعقة أصابت دمه ، فاستحال أزرق • لقد انهار المطبخ ، وأخذ الرجل يرتجف ، ولم يدر ماذا يستحسن عليه أن يفعل في حضرة الموت • سوف ينخرس كالعادة ، ويظل ينتظر حتى يوقفوها • ينحسر صمت الاصوات ، وتبدو العاصفة وكأنها تود أن تلتقط أنفاسها • جلبة الجيران يسمعها جيدا ، هذا وقت يصلح جدا للمشاورة •

– هل سترحلون ؟

– انتظرنا في بيتك •

وعندما خرج ليستجلي الموقف ، لم يكن ثمة أحد ينتظره • وكانت معالم الطريق غامضة ، فالدخان المتصاعد يمنع الرؤية ، لكن الرجل لم يمنع نفسه من التساؤل : من كان ، من كان فقط يتصور انها ستحدث ؟•

**٣ – امرأة في الشهر الاخير**

مضى على اصدار صك زواجها ، أقل بقليل من عشرين عاما • وخلال هذه الاعوام الطويلة ظلت تنتظر بصبر فارغ ، أن تضع مولودا ولو انثى • لم يكن زوجها في مساء العمر ، ولو كانت • وأخذ اليأس يتسرب اليها ، لكنها كانت تقاومه بضراوة ، وتتوسل الى حكايا اللواتي وضعن في وقت متأخر •

لكن يوما غير عادي ، أحست كما لو ان ثمة حركة في داخلها • لم تفصح لزوجها ، غير انها هشت لهذه الفرجة من الأمل • ولم يمر طويل وقت حتى انتفخ بطنها ، وتناقل الاهالي النبأ باندهاش غامر • وذات يوم جاءتها آلام المخاض • جاءها الطلق • قالت لبعلها : – أحضر قابلة •

– أم صابر تقوم بالواجب • قال لها •

وبدأ الألم يعتصرها ، حتى ودت بصدق لو كانت عاقرا لا تنجب • وانبثقت في خاطرها سيرة شقيقاتها اللواتي كان استعدادهن في مستوى الحدث ، فجرفتها الحسرة ، وأدركت أن مصيبة ستكلفها كثيرا ، ولا بد أن تبدأ عما قريب ، فتملكها الرعب • تحرك كيس اللحم في بطنها فتأوهت • أخذت أم صابر تدلك بطنها ، لكنها لم تستطع أن تقطع داء الألم • فلعنت المرأة بعلها ، ولعنت من كان السبب • لكن أحدا لم يكترث• ارتفع الطلق فراحت تصرخ صراخا محموما ، فأنشأت أم صابر في تلاوة الادعية وسورة الكرسي ، بدريه ونشاط ، بينما المرأة تلوى في فراش القش ، كأفعى ضربت على رأسها • أما زوجها فكان خارج الغرفة ، ينتظر البشارة المستحيلة ، وهو يضبط أنفاسه •

وظلت المرأة في مدار ست ساعات كاملة ، ترتقب لحظة الوضع • وبدا كما لو انها سقطت في حفرة اليأس ، فانكفأت على بعضها ، واستسلمت للنشيج •

غير ان بعلها لم ييأس ـ أو هكذا بدا ـ وتضرع الى المولى أن يكون المولود صبيا •

( المرأة التي تزوجت من عشرين قسرا ، لم يكن في بطنها ذكر ولا انثى • لان الماء يكون كل شيء ، ولا يكون ذكرا ولا انثى ) •

ويحكى ان الهزال استبد بالمرأة ، وطوتها الخيبة • أما الرجل فقد قيل انه استيقظت فيه رجولته ، وصمم أن يكون له صبي •• على الأقل مجرد صبي ، كأبناء الآخرين •

**٤ ـ يوم من رصاص**

ذلك اليوم داهم البشر كأنه طوفان • أشرقت فيه الشمس مبكرة على غير عادتها ، لكن الناس كانوا على عادتهم يستيقظون متأخرين •

ورغم ان الفصل كان صيفا ، وان الصيف قد اشتد قيظه ، الا انها أمطرت • أمطرت بسخاء غير معهود • ولم تحتمل الارض هذا الفيض ، فتوقف الماء في حلقهـــا • وجرف الطوفان الكلاب والقطط والخراف • وتشققت البيوت المتينة ، وتداعت القديمة على ساكنيها ، أما اولئك الذين يقطنون علب التنك ، والبيوت القماشية فقـــد أصبحوا طعما للاسماك • وتطوع رجال الأمن والوقاية ، فلم تثمر جهودهم بعد فوات الأوان •

قال أحدهم : انه صيف ، كيف تمطر في الصيف ؟

قال آخر : انه على كل شيء قدير •

قال آخر : لا تكرهوا أمرا عسى أن يكون خيرا لكم •

قال آخر : انها الأرصاد الجوية الحمقاء •

قال آخر : كان على الاصدقاء أن يلفتونا لذلك •

لكن رجلا انبرى من الزحام ، وقال بصوت عال : لو انتظرنا الطوفان، ما حدث • لكنه النوم • من يحرسكم في النوم •

وانفض الناس ، وكل منهم مأخوذ بالحدث ، ويحدث نفسه عـــن مأساته ، ومأساة أقرب الأقارب والجيران • ولم يعد أحد يطالب الآخر بوفاء التزاماته السابقة ، وانهارت الاتفاقيات والمشاريع والاحلام السابقة.. الا ان ما يلفت الأنظار ، عدم بقاء تقويم قديم واحد على جدران البيوت •

# وجهًا لوجه

خرجت باكرا ولم أكن وحدي ، كان هناك أفراد عائلتي وسكان المخيم . في الطريق الشائكة كانت الشمس الحادة تفضح زحفنا ، وكنت أتذكر بيأس حكايا والدي عن سمك يافا ، وبرتقال يافا ، حتى عن سينما « الحمرا » في يافا . لي من العمر عشرون عاما ، أحلق ذقني مرة واحدة في الاسبوع ، قال لي والدي اني أنحدر من بلدة صغيرة في قضاء حيفا ( في الملفات الرسمية حيفا سابقا ) . لست أبتعد عن الموضوع ، انها تتطاير في رأسي . الجرح هذا ؟ أجل هو الذي عمّدني ، صحيح أنا ادخن وألعب الورق واطارد البنات ، لكن لا أحد يقدر أن يكسر عيني . هذا العام حصلت على الثانوية ( كنت خائفا من العلوم ) وكنت أطمح أن أكون رجلا مستقرا . كنت أتصور اني سأصطدم بصعوبات كثيرة في سبيل الحصول على عمل مثل شقيقي يونس ، لكنهم لم يرفضوني وها أنذا . عندما صافحت عيني النسر في وجه الملازم أطللت على بلدتي فأصابني ما يشبه الرعشة ، لحظة وأقول لكم ، لم أرها بلدتي ..

قال لي .. لا ارتجالية !. أما الصليب الاحمر فقد أعلمني اني غير مرغوب فيه . اشتركت في أكثر من عملية .. انها تتطاير في رأسي ، وفي كل واحدة كنت أشعر اني أنهض في وجه جميع القيم السفلى التي تقود هذا العالم ( كنت الاول في الانشاء والتعبير ) . لا أبالغ أبدا اذا قلت

لكم بأني كنت أشعر ان قامتي تطول أكثر بعد كل اشتباك ، كلامي مشوش ومختلط ببعضه ، من قال لكم اني حكواتي أو محاضر ؟! في هذا الوقت آخر ما يجب أن نلجأ اليه الكلام ، الشفوي .

سأكتب اليوم في مفكرتي ان هذا اليوم مسلٍ لاني انشغلت فيه كثيرا بالكلام . فعلا لغة عقيمة . يجب أن نتقن لغة النار الى جانب اللغات الحية. انها تتطاير في رأسي . نعم . تريدون أن أذكر لكم عن عملية واحدة ، كيف أختار واحدة ممن أحب ؟ كنا ثلاثة عشر رجلا أو أربعة عشر رجلا . عدد كبير حقا ، لكن أفعاله كثيرة أيضا . كنا في مغارة تاريخية مهجورة . حولنا أشجار التين والزيتون ، والصخور ، والصمت فاغرا فاه . اعترف الرفاق انهم جياع . وكان بي أيضا جوع . « هو » لم يستطع أن يحضر لنا طعاما ، أما لماذا فلانه لم يستطع . القرية ؟ القرية على بعد كيلومتر واحد ( بلدتي أقرب الي من السلاح الى قلبي ) ولا بد أن تتزود منها . من يذهب ؟ . لا لن أتأخر ، زيتون وجبنة وسكر ، لدينا شاي وخبز ما يكفينا . خرجت وكنت أتوقع أن أصطدم بالخطر كل لحظة ، ولكن الذي كنت أتذكره بمرارة يوم الخروج ، كيف كنت اواجههم بظهري المسافر ، لم يعد وجهي في ظهري .. أعرف اسمها « ... » أما المدخل المناسب وما بعده فلا أعرف عنه شيئا . القرية من منطقتي وأنا الذي يجب أن أتوجه اليها حتى لو لم أكن خبيرا بمسالكها . لا يهم . زيتون وجبنة وسكر . لا لن أتأخر وقبل منتصف النهار سأحضر . هذا الرجل كأني سبق لي أن رأيته .

ـ يا عم اسأل عن دكانه .

كانت في عينيه حسرة مكبوتة ، وغيمة .

ـ ليش دكانه ، بيتنا قريب ، من خير الله وخيرك ..

كانت الدكانة في نهاية الزقاق ، وليس ثمة جلبة حولها . باب خشبي

مفتوح على أقصاه ، عند المدخل برميل كاز وكيس بصل ، وكرسيان يجلس على أحدهما شاب واضح الحيوية والعافية ، وعلى الآخر تتكوم امرأة . تطلع الشاب الي بزاوية عينه بتركيز بالغ ، وقال بصوت تضامني يرشح محبة – انت منهم ، الله معك ..

رفض أن يأخذ المقابل فأيقنت ان الدنيا بخير . لكن كيف عرف "ني واحد منهم . هل ملابسي تفصح عن ذلك ، لا بد انه تمعن النظر في عيني وعرف اني غريب عن القرية . لو رأتني دورية من أفرادهم هل تعرفني؟. كيس الزيتون والجبنة ابتل كثيرا وأخشى أن ينفرط لا بد أن أسرع . انهم ينتظرونني ، و .. موعد العملية ينتظرني ، آه انها تتطاير في رأسي !

– الى بيتنا .

قلت له وكان يشملني بعيون زرقاء . حاقدة ..

– أين بيتكم .

ولقد كان هذا أعقد سؤال وجه الي في حياتي . كنت أمام امتحان يتعلق عليه مصيري ، وبلدتي في قضاء حيفا لم تنعم بلقاء فارسها ، والرفق ينتظرون ، لو اني أعرف أحدا في القرية ..

ترى أي بيت أختار

– بيتنا هناك .

أدركت انه غير مصدق فأوجست خيفة ، مشينا معا ، عندما أشرت اليه باصبعي لم أكن أحدد بيتا بالذات ، أي بيت يصلح للاختيار ، وليس ثمة حل آخر . أعترف لكم اني كنت أمشي معه وأنا خائف . صحيح ليس بالسلاح وحده ينتصر المحارب ، لكنه لا ينتصر بدون سلاح أيضا . كنت أعزلا . وعندما أكون هكذا أشعر كأني عاطل عن العمل ، كحملة الثانوية الذين كانوا يتكدسون في مقاهي المخيم .

– نعم ، نعم ، هذا هو البيت .

ابتلعت ريقي بصعوبة وقرعت الباب المعدني ، وقف خلفي كالظل الثقيل • نظرت اليه بطرف عيني ، ولم تكن الجدية السابقة في وجهه • لانه وحده ؟ •

ـ ها هي الاغراض يا أمي •

كانت الام المفترضة تتسربل بمنديل أسود ، في العقد الرابع تقريبا ، وعلى وجهها قلق حزين • للوهلة الاولى نظرت الي بدهشة ، لكنها عندما لاحظته خلفي تبسمت ببشاشة وكأنها تبنتني بدءاً من تلك اللحظة •

انسحب العسكري الى الوراء وهو يهمهم ، بعد أن قذفني بنظرة خبيثة ، لكنها لم تكن عسكرية • شربت كأس الشاي على عجل وان كان مذاقه لا زال الآن على شفتي ، وسألتني عن ابنها وشقيقها لانهم معنا ، وكنت اطمئنها وهي لا تكف عن توجيه ضراعتها الى السقف •

خرجت بلهفة صوب رفاقي ، فقد تأخرت ساعتين والليل ينذر بالهبوط• العملية الآن لا بد في أوجها ، لا بد انهم يقاتلون بضراوة • لا أعرف اذا ما كانوا قد أرجاؤا لحظة التنفيذ باعتبار ان قواهم ليست كما ينبغي ، نفس الطريق • انها لا زالت تتطاير في رأسي • لحظات وأصلهم ، كنت أريد أن أروي لهم عن أعصابي •• الفولاذية • يا لجلال صوت الرصاص ، لم أنس شيئا : زيتون وجبنة وسكر • أنا مخرب ! ، بضع خطوات وأصل • سينفجر في وجهي أحمد ، لكن ماذا أفعل ، لم يكن بيدي • المغارة من الخارج تبدو في صمت • لا صوت ولا نأمة للرفاق • الجوع شل قواهم ، كما ان الانضباط واليقظة ضروريان ، أم تراهم غادروا ؟ • أحمد : ليس ثمة أحمد • مصطفى : لا يرد • خالد • حسن • صبحي• كان صدى الصوت موحشا • أشعلت عود ثقاب بحذر ، وبالفعل •• لم يكن هناك أحد • وجدت سلاحي ملفوفا بقماشة ، وبقايا قطع الخبز

متناثرة • أصابتني حيرة لا مثيل لها ، ولم أدر ماذا يمكنني أن أقرر • جلست أرتاح قليلا وأفكر بالمأزق •

مضت فترة وأعصابي مشدودة • حتى وقفت فجأة ، حملت سلاحي واتجهت الى المدخل الواطىء لاستشرف الطرف حولي • خرجت فاذا بي أقف، وجها لوجه مع •• أحد أفرادهم • لم يكن وحده ، وكنت وحدي • آلاف الصور مرت في مخيلتي تلك اللحظة • لست بحاجة لان أشرح ، كانت مواجهة عارية لا مداورة فيها ، و ••

وأقسم لكم اني لم أمت ، واؤكد اني لم أضع سلاحي •

لا تسألوني عما حدث بعدئذ • فأية دعوى لمزيد من الكلام •• أم أقل لكم ان الكلام وجدل الحقائق ، آخر ما يجب اللجوء اليه ، هذا الوقت ••؟

# العري في صحراء ليلية

- وماذا بعد ؟٠

تساءل شوقي بمرارة • انكفأ الى الخلف ، واحساس بالاختلاط يفقد اقدامه رشدها • الظلام يحتوي المدينة تماما ، والاهالى بدأوا في الخفاء يسفرون عن وجوههم الاخرى • الخضار التالفة والعلب الكرتونية الفرغة ومزق الجرائد ، تتناثر في الشارع الذي يمخره بشكل أوحى له بالخراب والحزن •

جاءته رغبة في التوزع في الاماكن الخلفية والغامضة ، لكنه عاد واختصر الرغبة عندما تفرس في دخيلائه بامعان ، فأيقن انه لو فعل ، سيكون ذلك هربا غير مضمون النتائج •

لم يكن قد اقتحمها بعد ، وكان جديدا على تلك المدينة الباهضة ، ترك وراءه مدينة صغيرة تتسع لاسرة واحدة ، بعد أن صادرها العسكر الاعداء •

هذا اليوم ، مثل كل يوم بعد الظهيرة ، ينزلق من بيته الى منتصف المدينة ، حيث يحاول أن يمارس الاحتكاك ، والتعرف الى الاشياء مباشرة ، دون وسيط • أن يهبط كل يوم من الجبل ، كن ذلك يعزز بصورة ما ، من احساسه بالانحدار ، الشوارع وسيعة ، غير انها ملأى بالناس ، لذلك فهو يحشر نفسه ، ويتسكع باحثا عن شيء لا يدريه بالضبط ، وقد يكون

غير مفقود ؟. الأرصفة تحت حذائه يلعنها وليس ثمة ما ينسبه اليهـا ، كتلك العشرين ، تلك الكمية من الزمن التي أنفقها خارج رغائبهواهتماماته الحقة . كان كل همه أن يتصالح مع المدينة الجديدة رغم ثقته بالتنازل ، في سبيل أن ينغمر فيها ، لكنه بوضوح كان يشعر انه مجرد عابر لا يلبث أن يرتد الى الغرب الضائع ، أو يستأنف انفلاته من خيوطه .

وجوه المدينة تختلط بحجم التناقض بين آدميها . طفل متسخ يسرق شيئا لذيذا فيلتقطه شـرطي حريص على الأمن . عجوز مزمنـة تزحف لصق الجدران . وجه سبق أن رآه هناك ، رجل متكرش ـ تعجبه الدنيا ، فيضحك بصوت كالزلزال . شاب يسأل صاحب البقالة ، ان كان بامكانه أن يشتري أربع سجائر فقط . تقول لها صارت البلد ضيقة . ياي ! ولم تعد تحتمل . اعلانات السينما عن العمالقة والاغراء والمـدن المحترقة ، والضحك المتواصل . الذين ينتظرون توقف العربات التي لا تتوقف . جندي يؤدي التحية لضابط لا يكترث . التي ربما هي . من يدري ربما تكون هي ، فالبشر يخترقون طرقا متعددة وقد يلتقيها عرضا . ويعود الى بيته ـ في بيت عمه ، وهو حائر ان كانت الحياة هكذا ، أم هو لا يحسن الرؤية .

يبحث عنها من زمان ، من أول الزمان . أجل حتى هنا وهو مخلوع ، وكيف يصح ذلك وهناك من يتساقطون فوق أرض يعشقونها حتى الموت ، وكان يفترض به أن يكون كذلك ؟.

لا يمكن لأي كان أن ينكر مدى تحولـه بـين السادسة عشره والعشرين ، فخلال هذه الفترة الشائكة ، أحس شوقي بضآلته ازاء العالم الكبير ، اذ كان كثيرا ما تصيبه نوبات دوار فظ ، أو حالات اختناق مريع عندما تتلكأ رغباته في التحقيق . كان العالم يبدو له شديد التماسك ومغلقا ، وقادرا على احتواء أي خروج عن منطقه ، وان أية محاولة للتفلت منـه

تصيب الشخص بشعور فقدان الجاذبية دون عزاء ، مثل العري في صحراء ليلية ( عندما خرجت وكنت أجر هزيمتي كالعربة وراء الحصان ، هبطت شهواتي الى مكان مظلم سحيق ) .

ذات ظهيرة كان عائدا من مشوار مضن بعيد . ريقه جاف كالعادة ، ورأسه به وجع من ساعة ، وكان متعبا وكل من في زحام الشارع غريب عنه . وعبر لحظة كثيفة عميقة ، رأى المرأة بكل عيونه ، فأحس احساسا باهرا بأن أعصابه تشهق من المفاجأة ، وأشواقه تستيقظ وتتحرك الى أكثر من جهة .

وكأن المرأة أضاءت في النهار . طويلة في مستوى التطلع اليها . ولها سحنة متشربة من ماء الحنان ، لا تقبض عليها الذاكرة من أثر الانبهار ، ويمضي طيفها وراء اللاوعي . بيضاء كأنها زنبقة جسدية . ولها أيضا صوت واطىء دفيء ينبه التطلعات المنسية .

الوقت مساء ، الشمس تسحب أشعتها الاخيرة وتحترق ، الناس في الشوارع يطاردون شواغلهم أو يتحلقون حولها ، شوقي يستند الى مصباح كهربائي ، باعة الصحف المسائية أصواتهم عالية من الرجال في زفافهم الدامي مع الارض . شوقي يرد التحية لصديق تعرف اليه في المقهى ونسي اسمه . صديق آخر مقبل عليه ناشطا ويشمله بنظرات تساؤل واستنكار ، مشفوعة بابتسامة معلقة على شفتيه .

ـ ماذا تفعل هنا ؟ .

ـ أقف .

ـ هم يموتون وقوفا ، وأنت كذلك .. مع الفارق .

ـ وأنت تموت ماشيا تثرثر .. مع المقارنة .

ـ واقف كأنك تنتظر فرجا ..

ـ أنتظر أن تفرج عني .

ـ كتاب جيفارا الاخير هل قرأته ؟.

ـ أعتقد ..

ـ وصديقنا طاهر ما أخباره ؟

ـ اشترى حذاء بمناسبة التنزيلات .

ـ وغير ذلك ؟.

ـ قال انه أصبح سريعا ما يضجر ، وقد يستقيل ويسافر .

ـ لقد سافر .

ـ لماذا تسأل اذن .. أين سافر ؟.

ـ الى الغرب من بيت حبيبتك .. ألا تفكر مثله في السفر ؟.

ـ هل تكف عن اثارة الأسئلة ؟.

ـ أنت تصر على التمويه .

ـ ( تطلع شوقي الى مهرجان الألوان في الأفق ) .

ـ وتخترع هموما .. لا بد من أن تندم .

ـ قد يكون الندم مطهرا .

ـ ولكنه يفضي أحيانا الى الانتحار .

في مطلع الشارع تجمهر المارة حول حادث اصطدام ، استقطب العابرين الذين يفقدون الوجهة في المسير . ظل شوقي مزروعا في مكانه ، وكأن أمرا لم يكن . هرول الآخر راكضا وكأنه تأخر عن مهمة مستعجلة . شيعه شوقي ، وعاد الى محاورة الوقت والتطلعات . ان الوقت الذي حدده قد أزف الآن ، وها هي تطل من بعيد مثل الرعد .

تهيأ وتطلع حواليه كأنما يقدم على اثم . وفيما هي تقترب ارتبكت أقدامها للحظة ولم تلبث أن دلفت الى بناية شاهقة بصحبة طفلة . ( من جديد أجر العربة ورائي . كنت أشتاق أن اولد مرة اخرى في المنفى . لم أبدأ بعد . لكني أحبهـــا . يوم خرجت شعرت ان ولادتي كانت في

الأصل عسيرة ، جدران الرحم ضيقة ، وعسيرا ما أطل ) .

تأرجح الرصيف تحت أقدامه ، وبدأت الخيبة تقرضه من الداخل . ثم تبين ان السابلة تجمعوا في مطلع الشارع حول سائحة طليعية ، من بلد أشقر . فدخل دارا للسينما دون أن يتبين اسم الفيلم . وهناك أصابته نوبة دوار فظ ، كثيرا ما تداهمه عندما تتلكأ رغبته في التحقق . شاهد الفيلم ينظر اليها ولا يراها . البطلة تفضح له صندوق أسرارها ، ويتفقان على عدم الزواج .

وقف الرواد الذين يشاهدون الفيلم للمرة غير الاولى متأهبين للخروج . المدينة فارغة تستسلم للنعاس ، وبقايا المحال المفتوحة تبدو مثل أفواه تتثاءب . دوريات الشرطة متسمرة بارتخاء أمام الشركات والمصارف . السماء زرقاء على سوداء والقمر أصفر والنجوم تحصى . نسيم هادىء رائق يتسلل الى رئتيه . لم تكف به رغبة في العودة الى بيت الاب – في بيت عمه .فهل تكون الحياة هكذا ، وماذا بعد ؟. تساءل بمرارة ، وأطلق أقدامه في الشوارع ، التي تصل ولا تصل . حاول أن يضيع في خلفيات المدينة غير المطروقة ، لكنه عاد ونبذ الفكرة . وقع أقدامه يسمعها جيدا . في داخله أكثر من شخص يتكلم ، حاول أن يتسمع فلم يستطع تمييز الأصوات . وظل يجدف في الشارع وحيدا حتى نهره شرطي مستيقظ وسأله عن هويته . كان قد قطع مسافة طويلة ، ووصل الى ظاهر المدينة . الساعة بعد منتصف الليل وحوله فراغ الحياة الاسود ، أما امتداد الشارع الموغل في الوحشة ، فيؤدي الى مدينة صغيرة ، صادرها العسكر الاعداء ، ذات ظهيرة محرقة .

# علبة تبغ لعبدالحميد

قبل مدة طويلة لم يعد يذكرها ، دق شخص غريب على القضبان التي يستند اليها ، فأشار النزيل عبدالحميد الى صدره المكشوف ، متسائلا ، فأومأ الآخر برأسه .

ـ نعم . انت .

ـ ماذا تريد ؟ .

ـ انت تنسى . أنا اخوك الكبير . لن تبقى هنا ، قدمت طلباً للافراج عنك . ثم دعاه الى الصبر والصلاة ، ونفحه علبة تبغ ، وركز عليه نظرة حنو قبل ان ينصرف .

هذا الأخ يأتيه مرة في الاسبوع ، يوم عطلته ، يعده دائماً باطلاق سراحه ، ويحيطه بأخبار الاهل ، ثم يلقمه علبة تبغ ، دون ان ينسى دعوته الى الصبر وانتظار الفرج .

ومن بعد حدثت أمور شتى . بعضها يستعصي على الفهم . بعضها لا يصدق . بعضها يدعو للمرارة . وبعضها للدهشة والاستبشار .

وانتهت الى ما يشبه القطيعة ـ خاصة من طرف النزيل ، وبالتالي الى ما هو غير متوقع على الاطلاق ، في الزنزانة ، وفي ما حول .

منذ المرات الأولى التي جاءه فيها ، فهم عبدالحميد ( وحدس بذلك من قبل ) ان بقاءه الى الابد ، في مكانه ، ليس هو الأمر الطبيعي ، وان

خروجه أمر محتوم بناء على طلب الاخ ، أو بوسيلة أخرى • وظل النزيل ، من طيبة وقناعة ، وفياً لبادرة الأخ ، الى درجة ، كان ينفق معها كل وقته في الضراعة والانتظار ، دون ان يحرك ساكنا • كان يخشى لو تجرأ وفعل أي شيء ، ان تنهار الثقة بينهما ، أو يحصل سوء تفاهم ، ينسف العلاقة التي لا غيرها • لذلك ركن الى الصمت ، كأنما استحال اخرساً ، ثم في مضغ الدقائق بلا جدوى في الزنزانة التي لا يذكر انه اقام في مكان غيرها •

يبدو ان الزنزانة قائمة في بقعة نائية من صحراء ما ، منسية خلف ظهر العالم • حول القضبان تتسلق متشابكة نباتات شوكية بألوان رمادية وصفراء • يتيسر له دائماً ان يتسمع أصواتاً ناعقة ، أو صدى لصرخات مذبوحة ، والهواء الأغبر ينقل رائحة عفونة تقبض الرئتين • والى ذلك هناك الزوار ـ وقد يكون لهم اسم آخر ، وهم متباينو السحن والانفعالات، كثيراً ما يأتون دون مقدمة أو موعد ، يتفرجون عليه بعطف واستغراب ، وعلى البشر الآخرين ، ويمضون كأنهم لم يأتوا •

مع تراخي الوقت استبد به ضجر ، واستيقظ لديه الشك في أمر العلاقة ، حتى نخر اليأس اعصابه من فرط الترقب ، والتحديق في الفراغ العريض ، وأصبحت حالته كيفما رأيت اليها ، لا يحسد عليها • وفي كل مرة كان ينوي أن يطرد الأخ ، ويشهر عليه شكه ورفضه ، يعود ويتراجع بفعل عاطفة مبهمة تنبثق في صدره عند اللحظات الأخيرة ، فيتناول علبة التبغ ولا ينبس • حصل في احدى المرات اللاحقة ، وهي حادثة لا قبل له بنسيانها ، أن أحس بعملاق ينهض ملء كيانه ، بينما ابتسامة الاخ تتأرجح على شفتيه ، والقضبان بينهما • رفض التحدث معه باشارات عصبية وأخذت اطرافه ترتعش ، وصدره ينغل بغضب اسطوري • راح يهز القضبان بكل طاقته الآدمية ويصرخ صراخاً محموماً ارتعب له الزائر ، لكن الزائر لم

يعدم الاحساس بالرحمة ، فقذف له بعلبة التبغ ، واستدار راجعاً ( تساءل في الطريق : ما يجديه الغضب والنرفزة ، لكنه حدث نفسه بأنه سيفخر به وينفعه ذات يوم ) .

شيعه عبدالحميد بنظرات تراوح بين الثقة والاستنكار . ثم عالج علبة التبغ بأظافره . هل هو موقوف أو محكوم ، وبأي تهمة ، وكم مضى عليه من الزمن . لم تكن هناك من مرآة يبصر فيها الوجه الذي له ، باستثناء عيون جماعته الذين يقاسمونه حظه الفاجع . اكثر من شيخ دامع العينين دائم الأنين . صبايا منفوشات الشعر ، مكسورات الاهداب ، وسيقانهن ملتصقة ولا تنفرج . عجائز مسلوبات القدرة على الحركة ، يحصين ليل نهار عدد حبات سبحاتهن المطولة . أطفال بشعر ابيض وعيون لما تومض بعد . كل منكمش بعضه على بعض يحدث افقا مجهولا ، أو يطارد ذكرى لا تطالها الذاكرة ، أو يهرب من كابوس يلح على الوعي ، غير ان المصير الواحد كان يوحد لديهم الاحساس ببؤس المكان . شخير العجائز الذي يضفي على السكون دهشة لا تطاق ، فضلا عن زعيق الاطفال ، وهلوسات الصبايا . في تلك الليلة ، كل ذلك عزز من أرقه . أصابه أرق ممض ، اذ هرب النعاس من أهدابه ، وتناوبته هواجس قاتمة . ظل يتقلب فوق فراش القش ، ويبدل من أوضاع نومه ، دون ان يتسنى له الاغفاء . وكما يحدث عادة داهمه النعاس في ساعة متأخرة ، فارتد الى المناطق المعتمة من ذاته . رأى الأخ تقوده ابتسامته المجانية ، ويلوح له بعلبة تبغ وببطانية وصحف ، وأكياس تحتوي ما في داخلها . انتفض عبدالحميد كأنه تلقى اهانة فظيعة تتعلق بشرف امه او شقيقته فأخذ يهتف بانفعال صاخب : من دعاك لزيارتي ، من كلفك باخراجي . اريد ان تغرب عن وجهي . لا اريد الا ان اخرج . الآن ، لا اريدك انت ، الآن .

الذين يتهيأون لأداء صلاة الفجر ، نهضوا بهلع . انتهره الشيوخ

بالكلام الحكيم ، فيما استعاذت العجائز بالله من الشياطين والاباليس • ثم ازاح اللحاف عن جسده ، بعدما انحسر النوم عن عينيه • هب واقفا كأنما يلبي أمراً عسكرياً • توجه الى القضبان يهزها بكلتا يديه ويضربها برجليه ، على أمل ان يزحزحها ، ويحدث فجوة يخرج منها الى الخارج المحظور • لكن الكهل السجان ، الذي يرتدي قبعة صغيرة على قياس رأسه ، ويزرع في الزاوية اليمنى لفمه غليوناً قصيراً ، استيقظ على الجلبة فتقدم منه برفقة حارسين ملوحاً بالسوط الطويل ، ولم يعتم ان جلده على ظهره عشر جلدات سريعة متفرقة ، وانذره : اذا عاد لهذا الشغب فسيضاعف من عقابه • ( لقد خاف السجن ان يحذو جميع النزلاء حذوه ، فيلجأوا الى اسنانهم الحادة ، أو شد القضبان بجدائل البنات ، أو يصرخوا مجتمعين فيسمع القضاة في الاقاصي ) • ولم يكن عبدالحميد ليفهم المفردات التي تتساقط من فم السجان ، انما كان يقرأ في عينيه الضيقتين •

غداة الصباح التالي لم يكن في مقدوره ، ان تتجول عيناه في مدى الصحراء ، كانت اسلاك شائكة اقيمت حول الزنزانة بالغة الارتفاع ، تتخللها ثغرات صغيرة كأنها ثقوب • استشعر مرارة في فمه ، واحس بصداع يضرب جدران رأسه من جميع الجهات • لم يستطع ان يتذكر بصفاء ، لكنه لم يملك الا الذهول عندما رأى الى الصدأ ، تغمر اصابعه • فنظر بطرف عينه الى القضبان ، واطلق تنهيدة عميقة • تذكر الأخ والمتفرجين ، والسجان ، وما فعله الليلة الماضية •

تناول الابريق الدبق المخصص له ، ثم جعله في وضع عمودي كي يستل آخر القطران منه ، ولم يكن يحتوي ، ما يكفي لأكثر من ترطيب اللسان وسقف اللسان ونشاق الحنجرة • تحسس ظهره بباطن يده الخشنة ـ رغم انه ابن عشرين • فاكتشف اخدودا جديدا قد انحفر في اسفل الظهر ، تعلوه طبقة قشرية سميكة ، قشط طرفاً منها وكان لونها

أسود • خلفت اثرها وجعا حارقا ، لم يكن بجديد عليه ، لكنه عندما عاد وحدق في السور الشائك حول الزنزانة ، احس ان ظهره يكاد يقصم ، اخدود جديد في الظهر ، لا يلتئم الا اذا استقام الظهر • ومناسبة جديدة لزيارة المتفرجين ، وللأخ كي يعرض عواطفه الغزيرة • الأخ الذي كان السبب •

لم تكن لديه ذلك الصباح ، قابلية للطعام والاشياء الاخرى التي تساعد على الاستمرار في العيش ، بيد ان السجان في العاشرة ، جاء كعادته بالطعام • ثم طلب منهم قبل ان يأكلوا ، كي يأكلوا ، توقيع عريضة يتنازلون فيها عن حقهم في الخروج ، ومكافأة لهم يتم نقلهم من باب الشعور والمحنة الى زنزانة أخرى مكيفة الهواء وبشروط صحية مثلى ، مع مفاجآت أخرى •

كان عبدالحميد قبل عرض السجان مصمماً على العزوف عن الطعام ، ولم يكن يفكر انه بعد سماعه سينقض على القضبان بأسنانه الكاملة ، ويجعل ذراعيه في وضع التفاف عليها •

ـ هل انتم كلاب • جئت تعيش • لا تدمنوا على الذل •

لم تكن لديهم الشجاعة حتى يرفضوا ، فبصم الشيوخ كل بأصابعه العشر ، عنهم وعن العجائز والصبايا ، وعن الاطفال الذين سيكبرون • وتناولوا الطعام ، لكن السجان تناول عبدالحميد من عنقه ، وكفأه على بطنه ، وأخذ يجلده بالسوط الطويل ، كانما مدفوع بحق شخصي تاريخي (يبدو أنه يعتبره حقداً قانونياً وشرعياً) حتى تلوث الاسود بالاحمر ، وتعب أصل ذراع السجان • بل ظهر عليه الانهاك من رفس عبدالحميد له • قال له الشيوخ في غمرة تأثرهم ، وبأصوات واطئة متخثرة : « من قال لك ان تفعل هذا • نحن نعرفه من زمان ، من أيام الانبياء • ليس في قلبه

رحمة • ونتقي شره • ليس لنا في الدنيا غير هذا المكان ، مكتوب علينا • اقتنع بهذا الوهم » • ليس عاديا ذاك اليوم • كذلك ابتسامة الاخ ، جاءه في ابتسامة اعرض من عادية ( لمحه عبدالحميد من خلف السور الشائك ، كان ثمة شرخ في جبهته • قيل انه بسببه •• ) سمع صوته المحزون :

ـ لقد سببت لي كثيرا من المتاعب ( وهو يتحسس جبهته ) هل ترى هذا • ليس ظهرك فقط ، هل ترى هذا •

وبعدها لم يأت ، لأنه لم يعد ينتظره • أحس بتعاطف معه عندما رأى الشرخ ، ولكنه تأكد له مع نفسه انه كان صغيرا جدا ، عندما كان ينتظر يوم الخروج على يديه ، وهو راكد في الصمت • وهو حتى الآن لا يؤرقه يوم الخروج بقدر ما تؤرقه تلك الاسئلة القديمة : هل هو موقوف ، أو محكوم بأية تهمة ، وأي زمن مضى عليه ؟ • تطوقه الأسئلة ويكاد يختنق ، ولا يجد له متنفساً ، سوى ان يقف بقامته الطويلة ، ويتوجه الى القضبان عبر نظرات الاشفاق والسخرية ، يهزهـا بجماع طاقتـه ، على امل ان يزحزحها ويحدث فجوة يخرج منها ، رغم حصار السور الى العـراء المفتـوح •

# فلسطين

وصلني من الشيخ العريق ان الكلام لا يبلغ الجسد • فمن منكم في هذه الاثناء ، نطأ جسد حبيبته بالكلام المباح ؟ •

الوقت في العشية ، بعد العشاء ، في مخيمنا • كان الشيخ استراحتنا ، وتستريح معنا سلاحاتنا المثلومة الباقية • وواحدنا يفتش له في ليل الخطأ ، عن خيط ضوء وحق •

١ ـ بعتنا : فارس ، أبو الطيب ، جهاد ، طارق ( أنا ) • كنا نتحلق حول الشاي الدافىء • لم يشاركنا في الحديث الا ندر • ومن أول ما جلسنا وهو يجهد في الاقتراب ولا يفلح • وجالد نفسه مرة أو مرتين ، وشاركنا • لا اذكر قوله ، بل اعرف انه جعلني مشدودا اليه • كنت بينهم صاحب الرغبة في الاصغاء اليه • على انه توقف • ومع اني كنت اتوقع ان يعاود الحديث ، الا انه لم يفعل • جعل يتسمع لوقع المطر ، اذ كانت حوالي البيت الصغير تمطر بانتظام ، انما بغزارة ، بعد أن كف نشيج الرصاص •

اذن ، لقد انكسر بين الشيخ واربعتنا ، أمر • بادىء الامر ، لم اعرف كيف تولاه اختناق وكظم ، واستحال الكلام في الفم •• رمادا • وعندما لحظت ذلك ، لحظت أيضا أن أياً منا في الحضرة ـ وهو ينسب الى

فرقته ـ يستعمل رأسه بحرص كبير ، حتى عندما لا يكون الكلام محسوبا • وطالما ارتج الشيخ ، اذ لا تملك يمينه تهدئة لنا •

ثم لفتني اليه شيخ مخيمنا ، الذي ما لبث ان انصرف عن الحلقة ، وأقعى بعيـــدا في زاويته • وحيـــدا ، لوحده • صار الشيخ طاعناً في مشاعر ، وها غيمة حزن دامية ، عينيه ، ودمعـة محرورة معلقة تمنعهـا الكبرياء • يا الهي • اين كان الرجل وهو بيننا • هل نكون جدفنا عليه ، ونحن تواضعنا على الكفاح الذي أثاره في شبابه ؟ •

لم يعد يسمعنا • يستأنف فارس الكلام بلهجته السورية ، فيقابله أبو الطيب ، ويهرول جهاد من جهته • كل منا يتسلل الى سره • كم أدرنا ظهورنا لبعضنا • وكم توارينا وتوارينا ، •• وكم ربما تلاقينا مرات ، في حضرة شيخنا •

صرت ـ خارج الدائرة ـ أسترق اليه النظر • أطفال المخيم يتدفأون بأحلامهم وأمهاتهم ( واي ذاكرة يحملونها معهم الى زمانهم ؟ ) •

صارت أصابعه المعروقة الناحلة ، تعبث بالعشب يعلو فمه • هل يكون له هسيس •• وأنا من يأخذني ويرميني في الشيخ الطفل ؟ •

( وأنا في الصغر ، لم تبتدىء طفولتي • كانت بلادي هائمة مسيبة ، وتخومها ما بعد الاراضي • لا انسى ذلك ، ولا اذكر مكاناً قويا ) •

لم التفت عندما نهرني فارس عن صمتي • ظل الاصدقاء الشجعان ، يتوفقون • لكن من في هذا الوقت الشديد : يلمس البحر السادر بهوله الازرق ، يقبض التراب بجماع اليد والقلب ، يصل الهواء الطائر المقصوف هنـاك ؟ •

وألقيت انتباهي على اصدقائي : وقع ابو الطيب في جراحه • وقف فارس على شجاعته • ويسأل جهاد وهو معنى عن الاعداء ـ وكانت القبيلة

خذلتنا ، ورأت في اولادها الاعداء •

اما طارق ( أنا ) فأعرب بعد تردد عن الفقدان ، وان ظل على كل ايمانه • وغرغرنا جميعاً بالابتسام والاحزان والمصير المشترك •

وشاء الاصدقاء بعض الصمت • لم يكن الشيخ قد غفا • ثمة يقظة مريرة ، تبطل نعاسه • قلنا ندعوه الينا قبل ان نتفرق • يجيء الينا أو نحن نذهب •

ـ « غضبت منا يا والدي •• مني ؟ » •

قال ابو الطيب بلهجته الاردنية • فرفع الشيخ الكبير ساعده ببطء ، عن الثوب على حضنه ، ومسح على عينيه •• وحار هنيهة اين تستقر الكف ، ثم حك زاوية رأسه باعياء ، وأطلق تنهيدة حرى : « الله •• » •

ـ « ابدا • انتم كما يقولون في الكتب ، ملحها • لكن ليس بيدي » •

رسم بيده صلاة ، قبل ان يوافي •

ـ « ليس بيدي العيش هنا ، ولا الموت هناك • اتعرفون ؟ » •

ومرة أخرى أطلق « الله •• » ، وهو مطرق خواطر الرأس •

ـ « انتم شباب ، نوار ، وفهمتم من القراءة • أما انا ؟ •• » •

ورأيته ، كأنما يزجر الخارطة القديمة ، التي صلبوها في البيت ، من خلل غبش دموعه •

بات خجلا منا ، ودموعه تذرذر •

( انه في « الذاكرة الثالثة » المشبوبة ) • فهمت •

عندها كدت افقد ذاكرتي • فاعتنقت سلاحي المثلوم الباقي ، بقوة • وانا اريد اريد ان اعثر على جسدي •

فقال جهاد مستأنفا كلام الليلة ، بلهجته اللبنانية •

ـ « يجب ان نحاكم التاريخ الذي صنعه آباؤنا من قبل ، بصرامة •

كاد الحديث عن خصوصية قضيتنا ينسينا القوانين ، التي تنظم ثورات العالم المتخلف » .

لكن الاصدقاء غمغموا متأهبين للخروج . أما الشيخ الاب ، فهو في هذا الوقت يقطر غيظاً وحناناً . دعانا للبقاء ، فاستأذن كل منا ، وحيّا .

ـ « يجدر ان تنام في هذا الوقت المتأخر ، والبرد ... » .

قلت له بعد ان رأيت في عينيه ، دعوة خاصة لي . فمنعني من ان اغادر . اقترب مني . مدّ يده الجافة الراعشة وهو يتمتم . تحسس وجهي وصدري بحنو واعتذار .

وقلت في نفسي « لأفتح له باب الكلام » . ففتحه :

ـ « انكم تسبقونني . فما الذي يقوله العجوز في بيته ؟ »

ـ « رأيت ماءها ونساءها وقبورها في صورتكم » .

ـ « ذهبت اليها وحدي ، كما تذهبون اليها كل يوم وحدكم » .

ـ « لم تعد لي . صارت لكم ، وصرتم لي » .

التصق بي وهو ينتحب . اخذ يتدفأ بي ويحيطني . ولما خرجت انشأت اركض حاضنا سلاحي ، صوب طفولتي القادمة .

# اللؤلؤة

• عندما خرج الرجل من البحر ، اكتشف ان خاتمه العزيز فقد الوهج • كانت اللؤلؤة قد سقطت في الماء ، فانتشرت في أعماقه الكآبة • ولم يتردد الرجل ، في النزول الى البحر ، ليفتش تحت الموج ، عن نقطة الضوء • فاصطدم بالعتم والصخور ، وخرج بخيبة مريرة •

ومن يومها ، أصبح الرجل يمقت كل بحار الدنيا ، التي تسلب الانسان مسراته • ( وتمر الايام ) •

ثم مرت الايام ، وسافر الرجل الى بلد بعيد • وفيما كان يتمشى في أحد الشوارع ، شعر بالجوع ، فدلف الى المطعم القريب • فأحضر له الخادم طبقاً من السمك الاشقر ، ولم يكن الرجل ينفر من السمك أو يرغب فيه • وبينما هو يلتهم السمكة ، ببطء وحذر ، خشية من العظام الدقيقة النائئة ، فاذا بجسم صلد ، يصطك تحت أسنانه •

( الرجل يقول : اني من الصباح ، أحس بترحاب عظيم ازاء كل الاشياء ، وأستشعر غبطة خفية ، وثمة حماس غامض يملؤني ) •

وبلهفة دس اصبعيه بين الاسنان ، وسحب بخفة ذلك الجسم الغريب، فاذا عظمة دقيقة نائئة » •

# الحب يؤدي الى الموت

رآها فأحبها فورا • ولم يكن يملك الجسارة ليصرح لها بذلك ، فاتصل بها ، ونقل اليها عواطفه والرغبة في التعرف ، فأقفلت السماعة • ثم كتب لها انه يحبها بكل أعماقه ، فلم تجبه بكلمة • ثم طاردها في الشارع ، والشوارع ، فلم تلتفت • ثم كتب انه يغفر لها تجاهلها ، اياه فلم تجبه بكلمة • ثم سافرت ، فكتب انه لم يقلع عن حبها ، وانه يحبها لا زال ، ٢٤ ساعة في اليوم ، فلم تجبه بكلمة ، ثم كتب لزوجها انه يحب امرأته حبا شديدا ، فلم يتلق ردا • ثم رجعت الى البلاد ، بعد طلاقها ، فكتب يعرض لها حبه الباقي ، فلم تجبه بكلمة • ثم كتب انه مستعد للموت، ليثبت لها الحب ، فلم تجبه بكلمة • ثم كتب ان حبه قاتل ، فلم تجبه بكلمة • ثم فكر في القتل • وسريعا ما طرد الفكرة ، ما دام لا يجرؤ أن يسحق صرصارا • وعند ذلك قرر أن يقتل نفسه • فكتب : انها اذا لم تجبه هذه المرة فانه ينتحر ، فلم تجبه بكلمة • فانتحر • ولم تعلم •

# الشوق الى الأرض الطيبة

نزع أبو العبد كوفيته وعقاله عن رأسه الأشيب ، وألقى بهما بجانبه على البطانية المتسخة .

أطلق تنهيدة عميقة ، فقد كان الحر لا يطاق وليس يجرؤ على خلع ثياب الوكالة عن جسده النحيل ، لان الخيمة تفتقر الى باب ، وقبالتهم بنات وحريم . فك أزرار حذائه الضخم وطوح به الى الزاوية ، ثم مدد رجليه باعياء بالغ ، ووضع تحت رأسه معطفا عتيقا كوّمه كيفما اتفق ، واعتمد على راحة يده المتشققة الجافة ، في محاولة لا غنى عنها للراحة من تعب الساعات العشر التي أنفقها في أعمال البناء في الجبل المجاور .

أم العبد كانت عند جيرانهم في الخيمة المحاذية ، تتحدث مع جارانها عن انقطاع الماء الدائم ، والاوس المغشوش ، والعمر الذي مضى منه أكثر مما بقي .

ابنته خديجة ـ قليلة الحظ ـ تتعلم في شغل الخياطة . أما حسن ، الشاب اليافع ابن العشرين عاما فقد كان وقتها يشرب الشاي ويدخن ، وينتصر وينهزم في لعبة الورق ، وأخيرا تعلم شتم الناس بدون سبب .

« هذا وقد يكون في مكان آخر ، من يدري .. » . تأوه أبو العبد ومسح قطرة عرق كانت تتأرجح على أرنبة أنفه . تناهت الى أذنيه الحافلتين بالشعر الكثيف أغنية عن القدس ، من مذياع يبدو ان بطارياته جديدة ، ولم يستطع عندها أن يتعرف على حقيقة مشاعره ، فانقلب الى الخاصرة

الاخرى ، وأحس بوجع كالمطرقة يضرب جـــدران رأسه وقال لنفسه : يلعنها من حياة • وشعر بالنعاس يتسلل الى عينيه ، ولم يكن هناك ما يدعو للمقاومة فاستسلم له بكليته • انه منذ نزح من مخيم النويعمة الذي مكث فيه عشرين عاما طويلة ، أنجب في أوائلها حسن ، وبنى دارا من ثلاث غرف في باحتها دالية وشجرة حور • من يومهـــا وهو يحن دائما الى النوم ، وقد قال له بعض العارفين في حلقته المسائية ، ان هذا مرض خبيث لا يحسد عليه ، وبعضهم صارحه انه يؤدي الى النوم الاخير • لكن على ماذا يكترث أبو العبد ؟•

رويدا رويدا كان وعيه ينحسر ازاء مد النعاس الذي يجتاح أهدابه، فيما كان هواء لافح مغبر يعبث بأشياء خيمته ، ويغمر وجهه المكدود بعرق دبق غزير • جلبة الاولاد في الخارج يسمعها كالطنين • الهواء الذي يمر على وجهه يجعله يتخيل انه يمضي في رحلة مضنية لا تنتهي ، في حالـــة سفر دون وصول • راحة يده تحت رأسه أصبحت مبتلة ، سحبها ، وكان المعطف خشنا ، كثيف الوبر كما لو انه ينام على شوك ، وحيدا في أرض مجهولة مقطوعة الاسباب بالعالم • الجبنة والتبغ لم يتركا في فمه ماء ليبتلع ريقه • نهض بتكاسل كي يبحث عن ابريق الماء ، ويشرب • تطلع حواليه برجاء وخشى ألا يعثر عليه ، وأخيرا وجده عند مدخل الخيمة • كان الماء ساخنا وفي القعر • جعل الابريق في وضع عمودي على فمه ، وامتص بنهم القطرات البخيلة ، اصطكت بأسنانه حصوة صـــغيرة عرقلت استمتاعه ، بصقها ثم بصق مرة أخرى بصقة مستقلة ، بيد ان طعم التراب ظـــل في فمه • عاد ليرتمي مرة أخرى على البطانية وكأنه يود أن يهرب من أمر مجهول يتربصه • عزم أن ينام نوما طويلا ، حتى لو أدى ذلك الى نومه الاخير ، لكن التعب الذي يسري في رجليه ، كان يعاكس رغبته • أخذ يجعل رجليه في أكثر من وضع كي يبدد التعب ، ولم يفلح في ذلك حتى

ضاق صدره وضجر • تأكد ان جهوده لا تثمر وسيظل معلقا هكذا بين أرض اليقظة وسماء النوم ، فاكتأب ، وخشي أن يكون ذلك بداية لمرض ما يحرمه من نصف الدينار الذي يتقاضاه من صاحب البناية في الجبل المجاور • لعن ابنه حسن الشاب الفالت الذي لا يبحث عن عمل ، ويظل يتغيب عنهم • أما مصطفى الذي يشتغل في الكويت من خمس سنوات ، فانه لا يلتفت اليهم الا في العيدين ، يبعث ورقة خضراء يستلمها حسن ويتصرف بها على مزاجه • ثم يقول اللعين انه سيتزوج وخديجة لم تستر بعد •

خارج خيمته يبدو ان الشمس توشك على اتمام رحلتها اليومية ، دون أن تيسر له ساعة أو ساعتان من الاغفاء • كان ذهنه متعبا ومختلطا من فرط التفكير والتذكير ، وقد وصل الان ذروة الاشتباك فلم يعد يفكر بشيء أو تخطر على ذهنه ذكرى • هش لهذه الحالة ، فغالبا ما تكون توطئة للتوغل في غابة النوم والنسيان •

لم تمض لحظات حتى راح أبو العبد ومعه فصول عمره الحزينة في نوم عميق ، من أوضح مظاهره شخيره الحاد المتقطع كصوت حيوان غب الذبح ، بينما كانت ذبابة مشاغبة ، كبيرة الحجم وملحاحة ، تتنقل على معالم وجهه فتجعل منظره لمن يتفرس فيه غير صحي أبدا •

الطريق من مخيم النويعمة الى الضفة الشرقية للنهر طويلة وشائكة • وعندما تسلكها اسرة كاملة ، في منتصف الصيف ، مشيا ، تبدو العملية أشد عناء ومشقة ، واحتمال الموت قائم أكثر من الحياة • لكنه ، في الواقع قطعها • فقد كان هناك ما يدفعهم ، من الخلف بالذات ، الى الخروج • أم العبد أغاظته في الطريق ، تريد أن ترتاح ساعة كل نصف ساعة ، بينما المسافة بعيدة ، والطائرات لا ترحم ، والذهول يجرد الاعصاب ويستفزها •

أريحا وراءهم تغوص في طوفان من الدخان ، وقلبه يفيض وأنفاسه تكاد تتقطع : يا الله ما أقساها من دنيا ، ما ألعنه من وقت ، كيف يحدث

ذلك ؟. أم العبد تجرجر الخمسين عاما ، وأكثر من تساؤل استنكاري مبهم يطل من عينيها . حسن كان نشيطا متوترا ، وقد تردد كثيرا في أن يسأل والده : لماذا لا نبقى مثل غيرنا الذين بقوا ؟ خديجة خائفة ، والبطانيات على ظهرها ثقيلة . قالت لأمها انها نسيت الراديو مفتوحا ، فألجمتها بنظرة غضب . وعادت تسأل : هل خرج دار أبو حليمة ؟ غير ان ثقل البطانيات أرغمها على الانتباه . أبو العبد رغم انه كان غير مصدق لما يحدث ، لكنه بدا وهو يغذ سيره كما لو انه كان يتوقع ذلك .

الجنود من حولهم ينسربون بانفعال ولهف . بعضهم يتجه الى النهر ، والبعض الآخر يقصد الاتجاه الشرقي . في الحرب تبدو الحياة والموت جد مختلفين ، بجسم ، وقد يختلطان . المعركة لم تكن انتهت ، واحتمال الموت والحياة لم يزل مثارا ، وله مذاق مميز في الفم .

أبو العبد كان يخشى أن تنفرط الأسرة . أن يفقد مثلا آخر العنقود حسن . أو تلك الحزينة خديجة . أو رفيقته التي أحبها ذات يوم في بيت دجن . في الـ ٤٨ أجهزت رصاصة على شباب بكره العبد ، وكم مضى من العمر وهو يتحسر ، وكم عذبته الكوابيس ، وطاردته الهواجس .

عند مشارف صويلح أقلتهم سيارة تراكتور ، فقد كان حظه كبيرا لان سائقها كان جارا لهم في المخيم . عندما صعد الى الناقلة الخلفية كاد يتعثر لما اشتبك سرواله بحافة الباب ، وجاءته خاطرة مريرة آذ تذكر الغجر الذين لا يقيمون فانتابه تعاطف غريزي معهم ، وخشي كثيرا أن يلتقي مصيره بمصيرهم آخر الأمر ، فأشرقت عيونه بدموع سخينة ، غالب نفسه وهو يخفيها عن عيون حسن . كان جسده يتمايل من أثر السرعة والزحام وعدم الارتكاز ، والسقوط والنهوض يتناوبانه .

ظلت نظرته مرشوقة الى الغرب ، وسيارة التراكتور تنأى به بعيدا ، وتنهب المسافات . كان وجدانه يقطر حقدا مفجوعا على الذين يخلعون

الاشجار • أطلت جبال عمان ، وأخذ يتخيل كيف تكون لقياه بأقاربه ، فأحس بالخجل والحسرة • عندما توقفت السيارة هبط الشارع وهو يتفسخ من الارهاق • افترش أقرب رصيف ، ومنحه ظل بناية شاهقة راحة كبيرة ، ممزوجة بالتشوق لشيء غامض ، وكان اليأس يهيء له انه لن يلتقيه • فلا أحد يخبر دقائق الايام السود مثل أبو العبد ، ولا أحد يدري بفعل رياح الخماسين مثل أبو العبد ، وكيف جعلته في نهاية المطاف لايملك غير خيمة زرقاء ضيقة ، تذكر بالتشرد والحياة المؤقتة •

– حسن لم يأت حتى الآن

– لا بد أن يجيء

– قد يكون ذهب الى السينما ، أو يتسكع

– لكنه صمم أن يأتي ، كان أكثرنا اصرارا

– قد يكون في الخيمة الزرقاء « السياحية » •

– ذهبت اليه بنفسي ، هناك والده العجوز ينام عميقا •

– •• الغائب عذره معه

– قد يكون في حاجة الينا

– لكن ربما أضاع الطريق

– لا أحد يعرف الطريق مثل حسن

– مضى نصف ساعة ، أشعر بقلق عليه

– يا الهي متى يجيء ، أين يكون ؟

– كل شيء محتمل الحدوث ، من يدري !

– أنا أقول ، ربما ينتظرنا هو الآن

– « لا بد ان حسن » ••

– « حلمت ان حسن » ••

حتى أدركوا انهم يهدرون الوقت بلا جدوى • اتفقوا بدون مقدمات

على ان الوقت ضيق ولا يتسع للثرثرة • انفض ثلاثتهم وكأنهم ينفـذون قرارا مسبقا ، وفي ذهن كل منهم فكرة تنتسب للغموض والوضوح معا • فكرة تشف كالحلم وتضيء • التقت عيونهم للحظة كثيفة وكانت لغة العيون تعرب عن اتفاقهم • تفرقوا ويملؤهم الشعور بأن وعدا ما ينتظرهم كي يلتقوا • استيقظ أبو العبد ، وكأنه صدر من قاع بئر معتم ، والعتمة أيضا كانت تحتوي حيز الخيمة الضيق ، وتمنع أصابعه المعروقة من التسلل الى علبة التبغ • راعه أن تكون الخيمة مقفرة ولا أحد ، والصمت بهـذا الشمول فأدرك ان ثمة أمرا يحدث • نهض بتثاقل • أخذ يبحث بأمل ضئيل عن المصباح فاصطدم بتنكة الكاز ، فسقط على الترابيـة اليابسة • حدس من جديد ان في الأمر شيئا لا يبعث على الارتياح منـذ خرج في الصباح الى شغله وهو يستشعر مرارة في فمه ، وانه مكدر وغير طبيعي • أين أم العبد ، ألم تشبع من الكلام ؟• وخديجة ما الذي جعلها تتأخر الى هذا الوقت ، لا بد أنها تلازم أمها • أما حسن فمن يقدر أن يضبطه • لم يحصل أن تركوه وحيدا فماذا في الأمر ؟• أطل من أعماقه حزن ملثم غامض الجذور ، فاستيقظت في خاطره توقعات سوداء • نهض كي يخرج ويسأل الجيران • انتابته الدهشة ، عندما رأى المخيم هادئا نائما ، فأيقن ان الوقت متأخر ، وازدادت مخاوفه •

ـ أبو يوسف •• يا أبو يوسف •

نهض هذا من فراشه منزعجا • تبادلا باقتضاب تحية المساء ، ثم قال أبو يوسف ••

ـ لماذا حرمتنا منك هذه الليلة ؟•

ـ لكن يا حاج ، أم العبد وخديجة ، أين ؟

ـ آه • صحيح • رأيتهما تبحثان عن حسن • قيل انه ، أنا لم أره ، انه كان يتمشى في المخيم بلباس شبابنا ، وسلاحه على كتفه ، ثم نزل الى

البلد . لا أم العبد ولا خديجة ، صدقت هذا ، كل واحدة أصرت على انه أصابه لا سمح الله مكروه ، لماذا تستغرب يا أبو العبد ، ابني معهم كما تعرف معهم ؟. لكن أبو العبد بدا وكأنه استغرب . تذكر للتو ابنه العبد الذي أجهزت رصاصة على شبابه ، وكم مضى من العمر يتحسر عليه . انتابه اليه شوق حارق ، فاذا بمعالم بيت دجن تلوح له وكأنه في حضرة حلم . أرضه الطيبة في بيت دجن البعيدة . وكاد يبكي الرجل ، لكنه انسحب الى خيمته . لم يتضايق هذه المرة من سطوة الظلام ، فقد كان منقطعا عن المكان ، يحدق في ذاكرته . لم يفطن أن يسأل « كم الساعة الآن » . غير انه كان متأكدا انه أطال في النوم ، وان ساعة الصباح قريبة .

# العانس لا تفكر كالآخرين

استلمت راتبها القليل ، فذهبت المرأة العانس الى السينما • كانت تلبس الثوب القصير • جلس الى جانبها رجل ، في الاربعين • وضعت المحفظة بين الساقين • ( عتمة ) • تسللت أصابع الرجل • كانت أصابعه دافئة ، ولحمها يستجيب حتى المدى • استسلمت المرأة بفائق السعادة ، ولم يكن الفيلم يعني شيئا ولن يعني شيئا • لكنها كانت شديدة الخجل ، فلم تر الى وجهه ، وتمنت في سرها ، لو يكون العالم ، هكذا : فلم سينما • ثم جاءت لحظة وشعرت فيها بالانحدار ، وقد ارتدت الى عالمها الأوحد • كان الرجل قد توقف عن ذلك • فرأت بيتهم الفقير ، والاب العجوز ، والصبية البائسين •

حين أضاءت الصالة ، وكان المقعدان بجانبها فارغين ، لم يكن ثمة محفظة • وعندما قالت للشرطي : انها كانت تطبق عليها ، استغرب منها • كادت تفسّر له « حسبت أنه » لكن الكلمات امتنعت في حلقها •

# لعبة اليقظة والنوم

أنا رجل بلا شواغل . أجوب الطرقات ، وأتمطى في المقاهي ، وأحلم بغزارة . قامتي طويلة كالقصبة ، وملامح وجهي سمراء مكدودة ، بيتنا على الطبقة الثانية ، وابنة الجيران مخطوبة لابن عمها ، قبل أن أنام أمكث ساعتين أحدق في السقف ، وأحيانا أنام مفتوح العينين . لكن عندما أنام ، أحس كما لو اني منذور لبئر لا قرار لها . وعند ظهيرة اليوم التالى أدرك ان القرار بعيد ، ومسكون بالهواجس الغامضة . لا علاج لوجع رأسي ، من فرط بحثي عن أمر يتعامل معه رأسي ، بالتفكير لذلك دائما رأسي يتدلى لانه ثقيل من الورم .

لا أضع برنامجا لأيامي ، ذلك انها تقوم بتلقائها بهذه المهمة . وهذا يقودني الى سيرة العمل ، العمل بحثت عنه عشرين مرة . طرقت عشرين بابا ونافذة ، فلم يأت ، لن يأتي قبل « غودو » . وعلى هذا أنا رجل محشو بالخيبة ،وعيوني مبصومة بحزن قديم .

لا أفلح في التذكار . ذاكرتي حافلة بالثقوب ، كمنديلى . أنسى اني لم أتناول طعام الفطور . أنسى الماء في فمي دون أن أشربه . يحصل أن أنسى لمن الوجه الذي أراه في المرآة . لكن ذلك كله لا قيمة له بجانب ذلك الحدث . نسيت أن أفتح باب قلبي ، فاجتاحه الصدأ .

مرة استغرقتني الرغبة في علاقة ، تخليت عن الرصانة ، ذلك ان وجهها رائق وطافح بالحنان .

ـ آنستي كم يكلف أن أحبك ؟.

بعد أقل من لحظة ، أدركت ان البصاق قد أصبح لغة حية . وسرعان ما فهمت فتدلى رأسي أكثر ، واحمرت أذناي ، فدلفت الى أقرب مقهى ، والتهمت علبة سجائر دفعة واحدة . فاذا به يهز رأسي قائلا :

ـ صدقني أنا لا اؤمن بالحب .

وكنت واثقا انه يؤمن بالشاي الثقيل ، فجلس يثرثر قربي متلذلذا .

ـ الليلة الماضية لم أنم وحدي ، دفا عفا . ألا تصدق ؟ اذن هات سيجارة . تذهب الى السينما ؟. سأتعشى هذا المساء دجاجا ، وبذلتي الجديدة ستعجبك . تكلم يا سيدي نصف الألف خمسمئة .

وخرج ، وبعد دقائق خرجت .

وبعد يومين رأيتها مرة أخرى ، غير ان وجهها هذه المرة ذكرني بساعات ما قبل النوم . طاردت قدميها ، وسمعتها بأذني اليمنى تقول لأحدهم ..

ـ أنت مجنون ، النافذة كانت مفتوحة .

فتحسس شاربيه بزهو ، ولعق شفتيه ، وابتلعتهما بناية أطول من رواية « البؤساء » .

عدت الى البيت وأنا أتساقط من الهزيمة . تناولت طعاما دسما على غير عادتي ( يلذ لي أن أكسر العادة .. ) ، ونمت دون جهد ، فقد كان التعب صخرة تستريح على جفوني . رأيتها تخطر بقامتها الملساء ، لكن المكان كان حديقة عامة ، والوقت قبل أن يبزغ القمر بنصف ساعة . بادرتني بالتحية ، وقالت انها تود أن تعتذر ، وانها تحبني بسخاء ، وترغب أن تتمشى معا ، زغرد قلبي لهذه المفاجأة ، فخرجت معها من الحديقة ، واحساس بالنصر يتوجني ، طوقتها بذراعي وحدثتها عن مشاريع المستقبل ،

وهي تغمغم بانتشاء . وأخبرتها انني أشتهيها . فعانقتها بالتحام حتى شعرت بهوة تفصلني عنها . حركت ذراعي ، لكنه كان يشق الفراغ عبثا . فحضر شرطي وقادني من أنفي الى المخفر بتهمة التبول في مكان محظور . وبقيت في السجن حتى سألتني أمي ان كان حان ميعاد صلاة الظهر أم لا . لكن ساعتي كانت متوقفة عن النبض ، وتشير عقاربها المتيبسة الى الثالثة عشرة .

وبعد ذلك لم أرها قط ، وان كان يروق لي ذلك . فأنا رجل بلا شواغل أبحث عن وسيلة أتخلص بها من عادة القراءة . جربت أكثر من وسيلة ، كالقراءة على الريق ، وبيع جميع الكتب والمجلات عندي ففشلت، والفشل يجرح كبريائي ، فعندما فشلت في الدراسة العليا ، كان أبي ضيق الصدر ، عصبي المزاج ، فحاول أن يؤنبني كأني طفل أعطب دميته .

ـ هذا هو قدر استطاعتي .

فأجابني بشفتيه ويديه وعينيه :

ـ اخرس .

أحسست بطعنة قاسية تخترق قلبي ، فقلت بتوجع وغضب ..

ـ طيب ، لن تروني بعد هذا اليوم .

أما أبي فقد هز رأسه بلا مبالاة .

ـ روح اشرب البحر .

ولضيق صدري بالفشل والمهانة ، صممت على فعل ذلك . حملت دلو الماء ، وذهبت الى أقرب بحر من بيتنا ، ورحت أشرب ، وأشرب ، حتى اضطر أبي أن يتأبط أكياس الفواكه ويزورني على السرير الابيض.

وبعد ذلك بيوم واحد ، رأيت واحدة تشبهها ، غير ان كعب حذائها كان أطول . كنت أريد أن أقول لها ان وجهها يذكرني بوجه أليف ، واني على استعداد لاستقبالها في أحد أحلامي المقبلة ، لكني عندما رفعت

وجهي اليها ، وحدقت في تضاريس وجهها بامعان • قالت وهي تنظر الى حذائي المثقوب من مقدمته ••

ـ لا تتعب نفسك ، بيتنا ليس كبيت أمك !•

ابتلعت ريقي بصعوبة ، وتصورت بحسرة بيتهم ، مشـــادا بالحجر الابيض الناصع ، تضيء حجراته مصابيح ملونة ، وتحضنه حديقة فائقة العبق ، يحرسها رجل أسود مفتول العضلات ، طيب النيات •

تقهقرت حتى وصلت الى البيت ، أعلمتني أمي أن بيتنا مهدد بحجز أثاثه ، اذا لم ندفع الديون المستحقة علينا ، فانتحبت في داخلي وصممت أن أبحث عن عمل في اليوم التالي •

أظل أقول لكم أنا عاطل عن العمل • أدمنت التطواف في الطرقات ، وتدخين السجائر مع الشاي ، ماذا أفعل في البيت ، اذا كان جهاز الراديو يقاطع محطات العالم كلها ، وكتبي تسكعت في أرجائها أكثر من مرتين ، وابنة الجيران مخطوبة لابن عمها ؟!

وعندما التقيته في المقهى الذي افتتح أبوابه حديثا ، قال لي ان لعبة الزهر أمتع من لعبـــة الورق ، ونصحني أن لا أكثر من السهر ، حتى تتحسن صحتي • وان الضحك لا الاكتئاب مفيد للصحة •

منذ انفصلت عن طفولتي لم أضحك مرة واحدة • لم أشرق مرة واحدة ، فأنا رجل بلا موقع ولا اتجاهات • خارج خارطة الدنيا ، وخارج المدينة التي تحدب على أبنائها • عندما تركني أوصـــاني أن أزوره في الدائرة ، لكي تتوثق بيننا عرى الانسجام ، وسدد الحساب •

أحاسب نفسي دائما ، لماذا جسدي نحيل ، وياقة قميصي تظـــل متسخة ، ولا أتردد على أقاربي ؟• وتظل هذه التساؤلات تضرب جدران رأسي بعنف • وأبدأ بحماس أبحث عن أجوبة مقنعة ، لكن لا يلبث أن يبرز من خلف ذاكرتي المثقوبة سؤال يحاصرني كسور الصين الكبير

( لماذا يولد أطفال الفقراء بشعين ؟ ) . وأحس كما لو ان السؤال مصوب الي بدقة ، فأرفع يدي وأتحسس جبهتي فأكتشف انهـا مطلية بالغبار ، وأنفي لا يكف عن تقدمه الى الامام .

ويجرفني اليأس . أنا متخم بالحقد لان حياتي سرد بليد ، وتطلعاتي الصغيرة تظل بين قوسين . وأنسحب الى تراثي .

ـ كنت سمينا كالبطة ، وأنت الآن هزيل كالعصا .

ـ لا يهم . عندما احصل على عمل، لن يستطيع السرير أن يحملني.

تمطرني بنظرات الغضب والرثاء ، وتجلس خلف ماكينة الخياطة كالسائق . فأدفن وجهي براحتي الاثنتين ، وأبكي بكاءا محموما بلا دموع.

هذا يحدث لي كثيرا ، وأمي لا تخفي رغبتها بخروجي من البيت .

ولقد قررت ذات يوم كانت الشمس فيه مكسوفة ، أن أرحل عن البيت الى الأبد .

حزمت حقيبة قماشية ، وانزلقت الى المدينة ، وبعـد ساعتين فقط تشنجت من الجوع وكانت المطاعم مقفلة ، والقطط تنبش بقايا الأطعمة ، أما أعضائي فلم تكن تحتمل رطوبة السجن . ركضت عائدا وتوسدت كتف أمي .

أنفقت تلك الليلة ، وأنا أحصي عدد البقع السوداء في سقف حجرتي ( لو كنت مثلي رجلا بلا شواغل لفعلت ذلك ) . غير ان شخير أبي مزق أعصابي المرقعة ، فاستبدت بي الرغبة في ترقب مولد النهار ، الا أن الشمس تأخرت عن المجيء ، فغرقت في بئر النوم .

# خارج الشعور داخل التشهي

كانت المرأة بيضاء فاخرة ، وفوق أن تقاوم • لكن ذلك لا يكفي للاتهام •

كان الرجل يتردد دائما على البيت ، لعلاقة صداقة يعقدها مع زوجها • ومن يوم ما رآها ، وهو يكتم الرغبة • ظل يتردد في السر ، مرة ، ومرة لزيارة صديقه • غير انه بعد مضي فترة شهرين ، طويلة ، لم يفلح في جعلها تقف على ما يريده • فبدأ يشكو الاحباط ، ولم تعنه المرأة فبقيت تغلق على داخلها •

ـ وكان الرجل يدرك انه ليس الحب ، وليس من ايقاع في القلب ـ• وفي آخر الليل ، يجلس الى نفسه ، ويقرر : أن يضمها ولا يطلقها ، حتى تمر أصابعه على كل جسدها •

وعندما يجلس الى قربها ، والشهوة تعتمل في عروقه ، يتبين انه لا « يشعر » بها • يحاول أن يمد يده فلا تطاوعه • ويحاول أن يقول كلام الغزل ، فلا يتمكن • ويحاول اختصار المسافة ، لكنه يظل في البعد عنها •

حتى ذلك المساء ، قالت وهما لوحدهما :

« أنت مهذب • لست مثلهم » : وكان في تلك اللحظة على ذروة الرغبة ، فأحس بسخونة العرق والاتهام • لكن زوجها جاء ، فخرج •

لم يستطع الاغفاء • انه الاتهام مصوب اليه بدقة ، ولابد لها ان تدرك ، انه تماما ، مثلهم •

في الصباح جاء بيتها • كانت كعادتها مغلقة ولا تعينه • مشى في الرواق حتى قابلها ، وجهاً الى وجه • التقط اعصابه ، ودفعها الى الغرفة ، وهو يجاهد في تغطية ارتباكاته •

كادت ترفض • لكنها لم تكن تريد ان ترفض •

وعندما انتهى ، رمقته بعيون دهشة واعتراف •

ولما خرج ، كان مزهواً • ذهب الى مكان العمل ، والانتصار يشيع على مدى كيانه ، كما يطرأ عليهم دائماً •

وبعد ساعات ، كشفت زميلته عن بعض ساقها الداخلي ، فلمح ذلك فجأة • وعندها ـ فقط عندها ـ تنبه الى ان جسدها كان بالضبط : فاخرا ابيض ، وفوق ان يقاوم •

# الولد ينتصر على النبوءة

ظل الولد يقهقه طيلة تلك الليلة ، والام تنهره فلا يكف . فتضرعت الى السماء « يا الهي . ليكن ختام ذلك خير » .

وفي الصباح ، تأخر الولد في الاستيقاظ ، فانتابها ذعر عليه . هزته برفق ، فلم يفتح عينيه ، فقالت لحالها .

« كم ضحك الليلة الماضية . حسبت ذلك » .

وشرعت الام تنتحب بالدموع امام جارتها ، التي اتصلت بالطبيب . وفي أثناء هذا ، ظلت تبارك السماء ، وتسأل ان يبقى لها ايمانها .

وعندما اتى الطبيب ، اشار أنَّ في الولد حمى ، وعينيه مرمدتين .

« لم تصدق المرأة ذلك » .

وبدت كما لو انها ضائعة المشاعر . ثم اختلط لون السماء بالرماد . اما الطفل فاستعاد بعض عافيته ، اذ انشأ يقذف السقف ، بالدمى الطرية الملونة .

# أزهار الخير والشر

كان الرجل في مطلع عمره • يعصف بالحياة ، عامرا بالثقة • وكان يضع ـ وهو الذي لم يعهد ترابه ـ اصيصا للأزهار مقابل سريره ، قريبا الى باب الغرفة • ولما كانت الازهار تنتمي لبلاد أخرى ، فقد وجب عليه ان يبذل لها عناية خاصة •

جاء بها وبراعمها دقيقة ، والاكمام غير ظاهرة بعد • بينما أمل الرجل لم يكن ضئيلا في انبثاقها وتفتحها • ورغم انه لا يعرف من قبل ، في الاحاطة بالازهار ، فقد كفاه الاصغاء لملاحظات البائع العجوز • وطالما ظل النبات أخضر نديا ، ظلت العاصفة خضراء في نفسه تجاه الحياة • حتى اكتشف ان حرصه حيالها ينمو ويتصل بنفسه ـ وهو الذي عمله لا يتوقف ، يستحق من القلب انتباها لا يتوقف ـ • ثم بدأ قلق خافت يشيع في داخله • ولم يكن يرجو الا الازهار ذات اللون البنفسجي الهادىء الذي يفتنه •

وعندما يأخذ نومه خارج جدرانه ، ويكون في العمل معهم ، فانه يقبل على الغرفة لاهفاً ، ويلقي على النبات الغريب ، عيون الحدب والرجاء ، قبل ان يمضي • وفي كل نهار آخر ، وقبل ان يرمى عليه نظره ، صار يرى وكأن احلاما قاتمة ، مرت بنومه في شأن النبات ـ وذاكرته في العادة تلتقط عند الصباح اقل الاحلام ـ • وفي ذلك الصباح المتأخر ، استيقظ متأخرا عن العمل ، الذي ذهب اليه •

وحين ادرك الوقت في الساعة ، شعر بالخجل منهم ، وأصيب بالاسف

والندامة • ان الاصيص في مكانه ، قريب من مرمى عينيه ، ورجع احلام الليل يطوف جدران رأسه • وقال في نفسه وهو يشاهد الاصيص العزيز « لابد أنهـــم تأخروا لاجل النائم في أوقاتهم • لابد انهـــم انتظروني وانتظروني » •

ثم انتشرت في جسده رجفة دفيئة ، وهو يتملى • البنفسجي الهادىء الذي يفتنه • ودام يحدق اليه ، حتى لبثت فيه الرجفة ساكنة • بينمـا اتخذت الاشياء وضوحا مغايرا ، لكنه حار •

وفيما هو يمضي اليهم لاهفا ـ وعامرا بالثقة ـ كان يجهش في دخيلائه بالضحك العميق •

# في هذه الأثناء

« سيدي • ارجوك سيدي ، لا تفعل ذلك » •

ولم يسمع العسكري • اطلق رصاصة واحدة ، فسكت الطفل • وظل الرصاص يزخ على الطفولة التي تتلو الضراعة • فخجل الآباء ، حتى استثيرت في بعضهم الرجولة ، ولم تبق قابلة في العالم ، الا وأحست الالم •

وفي هذه الاثناء ••

في هذه الاثناء التقط الاب الصيحة ، فدخل ملهوفاً شاعراً انه اصبح اثنين ، فمسح على الطفل بقبلة ، وجبين المرأة •

تطلع اليها بحنان • وتطلعت هي الى الطفل ، الذي صارت به اثنتين ، فغمغمت بانتشاء • ثم قال لها :

ـ كان ذلك شاقاً ؟

ـ ذلك لا يكون الا شاقاً •

فضاحكها •

ـ نفعلها ثانية ؟

فضحكت •

ـ لكن المحب دائماً •

ثم حدق بها •

ـ تحملت الالم بشجاعة ، حقاً ؟

فرفعت عنه ، عينيها .

ـ كأنما تكتب قصة ، تحب كتابتها .

فابتسم الصمت بينهما .

وهنا جاء الاعداء . فحمل بندقيته ، وذهب الى الحرب ثلاثين يوماً ، رجع منها متعباً وفارساً ، فاستراح في احضانها .

ـ اشتقته كثيرا ؟

ـ كان يكبر في خاطري كل يوم .

ـ كنت تخاف الموت ؟

ـ من اجله .

ـ كان ذلك مروعا ؟

ـ لا يكون ذلك الا مروعاً .

ـ وتفعلها لو جاؤا مرة أخرى ؟

ـ ليكن الوطن دائما .

فسكنت اليه مشدوهة ، وفي عينيها سؤالات .

ـ اقدمت عليها حقا ؟

فأخفض عنها عينيه .

ـ كأنما تقدمين على لوحة ، ترغمك عليها .

فنظرت صوب الطفل ، واتجهت الى وجهة أخرى .

ـ لكنها قتل .

فجاءت الى ذاكرته ، صور الجثث الموتى ، فتنهد ببطء .

ـ كنت لا اتمنى ذلك .

فضاقت ملامحها .

ـ كنت لا اتمناك عسكرياً .

فشعر بفداحة اللغة . شرع الطفل يبكي ، فأخذه اليه وتغنغه ، ثم وضعه في السرير الصغير . ونام الجندي مع امرأته . اصبحا واحدا . وفي الصباح روت له الحلم : انها في شوارع المدينة رأت رجالا بملامح صلفة ، لا ينتسبون الى مكان ، ولا تنتظرهم النساء في البيوت . مدججين بالرصاص ، ويطاردون كل الاشخاص ، وهم في عجلة من أمرهم .

وانهم قتلوا لها صغيرها .

وفي هذه الاثناء ..

في هذه الاثناء ، « ضربت القابلة خدَّ الطفل الوليد بقوة ، وقالت له : هذا هو العالم » .

فسمع منها وقال : ذهبت اليهم ثلاثين يوما ، وفي المرة القادمة لن أتردد .

فقالت ملهوفة . ـ سيكبر الصغير .

فأطرق الرجل وقد اتسعت عيناه . انهم يصلون الى السرير أيضاً .. بيننا .

فتشبثت به المرأة ويدها على القلب ، وكأنما سمعت في داخلها « اذن . هذا هو العالم ؟ » .

# امرأة في حياته

تطلعت اليه الممرضة الجميلة بحنـــان غامر وقالت « انت رائع • تشجع » • فتشجع الولد ورمقها بنظرة طويلة باتجاه واحد ، نسي فيها الوجع والألم •

وبعدما خرج الولد من المستشفى وصار رجلا ، رأى في الشارع الرئيسي امرأة صغيرة السن ، وجميلة • فاهتز من داخله ، وأحبها • وبعد أيام قليلة ماتت المرأة ، فاجتاحه حزن قابض •

( وفيما أنا في الحزن ، تصاعد من آخر ذاكرتي وجه شفيف وشديد السرية ، وكان لتلك الممرضة • فادركت بحرقة ان المرأة التي غادرت « هي » • غير أنه لم يكن هناك ما يدفعني للتساؤل : ان كانت تلك الممرضة حية أو ميتة ، هذه الاوقات ) •

# العزاء يسقط عند المفترق

يوماً كنت اجتاز ذلك المفترق .

لم تكن مدينتي ، وكنت مدفوعاً للاقامة فيها .

انني الرجل الوحيد مع الحزن في غرفتي . فلم استطع للآن ومن ١٩٤٨ ان المس شيئاً واضحاً واحداً ، سوى اني : خطأ .

وتصادقت مع شخص احببته ، وجعلت احكي له في الطريق الى المفترق ، عما أنا .

وحتى الاشياء الصغيرة ، تستدعي التفكير البعيد ( ليس من الضرورة القول بصدد الاشياء الصغيرة ، التي وحدها ، تستحق ) .

أما ذلك اليومي المعهود ، عند الاجتياز ، فكان بكل وضوح ، عندي !.

هكذا افكر : ان هذه الامور في العالم ، كلها خطأ ، وكلها صح . وفي ذلك مدعاة لمزيد من الحزن والاسى .

فتهيأنا لتجتاز الشارع ، وقلت له .

ـ اقول لك شيئاً ..

وقفت الى لحظة ، ففعل مثلي . عند ذلك ، اضاءت الاشارة بالاحمر . كان كلامي سيصبح بلا معنى ، فقد ولّى الاخضر ، اليومي . فاستشعرت سقوط العزاء ، وذهبت الى الصمت .

# فراشات البحر

« الى زبيدة ... »

جاءت في وقت متأخر ، بعد ان استبد به اليأس والرماد . فقال لها وهو يسائل نفسه : عن ماذا كان يفعل من قبل .

ـ « كيف تأخذ الصدفة ، شكل الختم هكذا ؟ » .

وكأنها تتوقع منه هذا الكلام . فأسدلت اصابعها على شعرها المسدل ، واطلقت ضحكة بيضاء امارة عن فرح ( ربما بدأ سابقاً ) ، وتحدثت في موضوع آخر لكنه غير مختلف .

وبعد ان ساد صمت قصير ، قالت .

ـ « البحر لا يكف عن اللعب . كل ما رأيته رأيت فيه بحرا آخر » .

كان السيد الازرق في تلك الساعة ، يرتمي بنعاسه الجبار ، الى جانب الرجل والمرأة ، وقد اتصل لونه بلون الافق . وكان هو يعزف عنه ويرى فيه تحدياً مبكراً وغير متكافىء ( كأن تقول : رجل عنده نوايا البحر وهادىء مثل فراشة .. يملأ غروره بيت سكر مثل : البحر غريق تحت فراشات بيضاء ) . ولما لم يجد ما يضيفه ، باعتبار ان الموضوع لا يثير خواطره تلك اللحظة ، فقد فتح موضوعاً آخر ، كان في ذهنه من قبل ، ولم يكن مختلفا . فقالت قبل ان يكمل حديثه ، وقد اوشكا من خاصرة البحر .

ـ « ومع ذلك اتمنى لو ارمي نفسي فيه . انه يثيرني » .

ومرة أخرى لم يجد ما يضيفه ، اضافة الى رغبته التي انقطعت في مواصلة الحديث . فقال لنفسه : « لنبدأ من الصمت .. » ، فسارعت الى القول .

ـ « لم اعد اعرف من اين نبدأ .. » .

فألَمَّ به شعور ضيعان صلة الوصل ـ وفداحة السر بينهما . ولم يستطع ان يغالب امتقاع وجهه ، وهو اذ يتخيل البحر وقد ابتلع الفراشات البيضاء الصغيرة ، ثم انقلب الى غول هائج ازرق يتهدده من كل الجهات ، وهو وحيد في رماده .

# كتاب النهار الأسود

توقفت عن القراءة عند الصفحة التاسعة ، وكان الكتاب في الحياة والتفكير في الحياة • وكنت متشوقاً للحصول على الكتاب ، ولما قرأت عناوينه ومطالعه ، تهيأ لي اني توقفت به • سيما وانا رجل متروك ، وعزاءاتي قليلة • ورأيت في النهار ، اني عندما في الليل ، الوذ الى غرفتي وحيداً ، سأنحني على الكلمات ، وامضي الوقت في انصراف •

وفي ذات اليوم ، سمعت حولي من الكلام ، كلاماً •

ـ انني سعيد كل الاوقات •

لم يكن الرجل نبيهاً • فقد كان على ثقة ، بان الرأس ليس ضرورياً كل الاوقات • وكان يعتبر جسده •

ـ يبدو انه كتاب قيم ؟ •

فهززت رأسي •

ـ لو معي من الوقت لقرأته •

فتطلعت اليه بغير اعجاب •

ـ تقرأ كثيراً استاذ ؟ •

ـ لا اقرأ كثيراً •

ـ ضروري ان اتخلى عن كل شيء ، لاقرأ ؟ •

ـ ليس ذلك ضرورياً •

ـ لكني احب الموسيقى •

ـ الموسيقى جميلة .

ـ خاصة الموسيقى الجميلة .

ـ

ـ واحب السينما . الافلام عندما تكون واضحة ساطعة .

ـ

ـ واحب المسرح ، الذي لا يشبه الكتب .

ـ

ـ واحب المنحوتات .

ـ

ـ وكذلك الاطفال والشجر والبحر والسباحة في البحر والضحك والاكل الطيب والسفر والتدخين والنساء الجميلات والهموم . واحب الرجوع الى وطني ، في الاول والاخير .

ـ كثيرة الاشياء التي تحبها .. ؟ .

ـ جدا . ولا افتش عن السعادة . تقرأ هذا الكتاب دفعة واحدة استاذ ؟ .

ـ اراك غداً .

ـ ثم فتحت الكتاب . كان رأسي ضائعاً ، وجسدي تعباً ومنفصلاً عني .

ـ صورة المرأة التي احببتها لا اعرف كيف التقطها ، وحدود هذا الحب من كلمات .

ثم قرأت في الصفحة الاولى ، مرة وأخرى . صارت العاشرة في الليل .

تمنيت لو اكون مع « آخر » . المدينة من حولي ، بعيدة ، تتنفس وتتعدد . الاهلون في كل الامكنة .

ثم قرأت في الصفحة الثانية الى التاسعة • لم افهم شيئاً • كانت الكلمات واضحة ومقنعة ، وببساطة • لكن الكتاب من ورق وحبر • كانت تضغط علي • راودتني رغبة في الخروج • فكرت اني من وقت طويل ، حاولت دخول المدينة ، لكنها رفضت الاقتراب مني •

والآن : ان اضيع في مكان واحد ، اسلم من امكنة عديدة • حتى فكرت ان الحيطان هي اربعة بالفعل ، وتمنع عن كل شيء • لا تحكي ولا معنى لها • ورجعت الى وراء ، فراعتني صحراء من الحبر والورق والنوم ، ولا شيء • وحتى نصف الليل ، بقيت معلقاً بين الصفحة العاشرة والباب ، فأصابني الغيظ ، وأصبحت لوحدي في العتمة • ولم تكن تلك سوى نهار اسود •

# ليل الجسد والقلب

انحنى على الزجاجة ، ببطء وسكينة وتلذذ نبيل • وكان يغشاه ذلك الخوف من وقت قادم ، ولا ينحني فيه على زجاجها ، أو على غيرها •

ولقد جاء الليل كما يجيء كل يوم • اسود ، أعمى ، ومغلقا من جميع الجهات ، وهو الليل الذي يكتنف ليل الجسد والقلب • فهتف متهيئاً هذه المرة ، أيضا « ها زجاجتي واني انتظر » وتبسم ابتساما قليلا • لكن هذا الانتظار بدا له شديد الغموض ، الى انه فادح ، الى كونه ممضاً • فآثر ان يترقب « نتيجة واقعية » : ذلك الومض الكريم الذي يشي بالرغبة في الحياة ، وينفي احتمال الموت القريب • ان ذلك الومض وحده ، من شأنه ان يجعله يتخلى عن محاولة تلمس ، ما يجب تسميته تحديدا ، مركز النظام والفوضى •• في قرارته •

كان الليل الاسود المحيط يتدفق في الخارج ، وقد ترك فيه اصدقاءاً نادرين ، لانه وصل آخر الامر الى عدم الانفعال حتى بهم ، فقرر التوقف عن لقياهم ، خوف ان تنقطع العلاقة على نحو باهت ومخجل •

ثم تطلع حواليه ، بدافع الاتصال البديهي ، فلم يكن المطعم ممتلئاً ، وكان هو ، على حال المطعم ، ممتلئاً فارغاً • ثم هجم على الزجاجة ، ورغبته تتسارع في تجاوز مذاقها ، الذي بصورة مجردة ليس سائغا • فلما عبر كأسه الثاني تصاعد ذلك السؤال القديم « متى يرجع هذا الصبي الى

صوته ؟ ، وشاع شجن كثيف في اعماقه ، وبدأ يغالبه بينما يطوف السؤال حول الكلمات ، ويطبق عليها ، ويباعد ما بينها • وطفق يغالبه حتى انبث في المخيلة أخيرا ذلك الومض الكريم الذي يشي بالرغبة في الحياة ، واشتعلت في القلب رغائب عزيزة شتى • فوقف بغتة ، رهن رغائب عزيزة شتى •

وقف بين يدي الليل الاعمى ، عند الباب ، ولما هم بالخروج لم يصدق : كأنما غادر شخصاً آخر ، ليسترد ببساطة شخصاً مصدوع الرأس• فاستدار عازماً على تصفية هذا الفساد حتى الانجاز ( الانجاز يعني الاجهاد التام ، حتى الغرق دون استغراق في النوم • أما النوم فلداعي السلامة من ذلك الالتباس القاتل : اذا ما ذهب لأي مكان ، يداخله الشعور بأنه أقحم فيه ولم يتجه اليه • وانه يتعين عليه ـ بصورة قاطعة اكيدة ، ومن أجل الحياة ـ ان يكون في مكان سواه ) •

# الفاقد

كان صديقي أبيض اليدين • ولقد طاف وتعب وشاخ ، فانتهى وحيداً • وكنت احدب عليه • فخلف الكتب ، وراءها ، وراء الكلمات الحشرات ، ينزلق ويرتمي سر أو اثنان •

عينا صديقي تتوامضان من اثر الرغبات القتيلة ، وفي آخر الليل تبتلان ، ويكاد الرجل يهم عزيزاً ان يبكي ، فيشيح بوجهه عني •

هو ينضد افكاره بهدوء الشيخ ورغبته ، مثل الصبي الشاطر يعين أمه ، يهيء سرير نومه ، قال : انه اليوم رآها ، ففرح بها ، وهي فاتنة • سعيدة بحياتها : تتدفق ، وقد لا يراها • وكمهدها وقعت في القلب موقعا • قال انها جاءت ( ماذا كان يفعل ، ماذا سيفعل ؟ ) • جاءت فاتنة للرجل الوحيد وذهبت ، ولم يبرح مكانه •

كان يخاف ( هل الانسان حيوان خائف ؟ ) خاصة في الليل المتأخر ، غادرونا ، فانتبه الى نفسه ، وحافظ أن تكون بعيدة سليمة • قال ذلك بجلال الخوف ، كأننا معا في بيت ، وكأنني بالذات في غرفة أخرى •

وقلت ( لكني لم اقل ) : اذن مرة اخرى •• مرة اخرى اذن • كان محتقنا ومختنقا وشديد القابلية على الايذاء ، لكنه متميزا أسى • فطاف حول حفرة الانهدام الاستسلام ، ولم يعتم ان سقط • بات قبالتي ، وضع نفسه داخل الصورة • ثم دلّى فانزوى الى •• الى « الاعماق » مثلا •

كان يابساً • كان في هذا الزمن يابساً • أو هكذا : طفل من اول عمره محبوس داخل محارة خارج البحر مغلقة يابسة هائمة بين الرياح وجدرانها • وكان صديقي طيباً • لا تلين عريكته ، ومن فرط حبه للبشر لا يطيقهم • البشر الفادحين الغليظين •

مهلا : ان الفاتنة جاءت وذهبت تيتي تيتي ، وفي وقت متأخر من الليل الأليل ، وفي وقت قصي من الانتظار المزوق • والرجل تضغطه الكتب وتبريه ، يقول وللتاريخ : لا •• ! لا يهم •

واذا ما تبسم وضحك وسال الحبر من فمه « طيبة ولطيفة ومهذبة » وأيضا « لا تقاوم » وأيضاً « تضعني موضع الاحترام » دقت ساعة قلبي عليه ، فجنت أعصابي ، ولم لم أصدق •

وعليه ، فقد فضحتني عيناي •• العيون الفضاحة • فامتقع وجهه بسببي واستدارت عيناه علي ، ببطء وتصويب وهجوم • واذا ما شرع يجوس يتفرس يحدق بي ، حتى أحاطتني عيناه وأطبقتا علي •• أغمضت من الهول عيني •

فيا أيتها الآلهة في مكانك • لقد كان ذلك صعباً •

# سلام على الفقراء

.. في أول النهار ، في أول الركض والاصطدام ، في زقاقنا العتيق . زقاقنا الذي في الجنوب من المدينة . اخذ الاولاد المنبوذون ، يطاردون سيارة البيك الطويلة ، التي اضطرت بحكم النية في الوصول سريعا ، من أقرب الطرقات وأيها ، لعبور زقاقنا المشهود . و ، وكان البيك يجلس ، كالعادة ، في الخلف ، الى اليمين . ولان البيك زعل ، كان يجب ان يزعل السائق العزيز . فاستدار هو : « أبو الوفا » اليهم وهرس من بينهم ، معهم ، لحم ولده الصغير .. الخ .

# الفهرست


أبناء الآخرين . . . . . ٣
وجهاً لوجه . . . . . ٩
العري في صحراء ليلية . . . . . ١٤
علبة تبغ لعبد الحميد . . . . . ١٩
فلسطين . . . . . ٢٥
اللؤلؤة . . . . . ٢٩
الحب يؤدي الى الموت . . . . . ٣٠
الشوق الى الأرض الطيبة . . . . . ٣١
العانس لا تفكر كالآخرين . . . . . ٣٨
لعبة اليقظة والنوم . . . . . ٣٩
خارج الشعور داخل التشهي . . . . . ٤٤
الولد ينتصر على النبوءة . . . . . ٤٦
أزهار الخير والشر . . . . . ٤٧
في هذه الأثناء . . . . . ٤٩
امرأة في حياته . . . . . ٥٢
العزاء يسقط عند المفترق . . . . . ٥٣
فراشات البحر . . . . . ٥٤
كتاب النهار الأسود . . . . . ٥٦
ليلى الجسد والقلب . . . . . ٥٩
الفاقد . . . . . ٦١
سلام على الفقراء . . . . . ٦٣

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST
31142 01270 6449
PJ7860.I56 U7 1972
al-`¿Ury f
PJ
7860
.I56
U7
1972
c.1